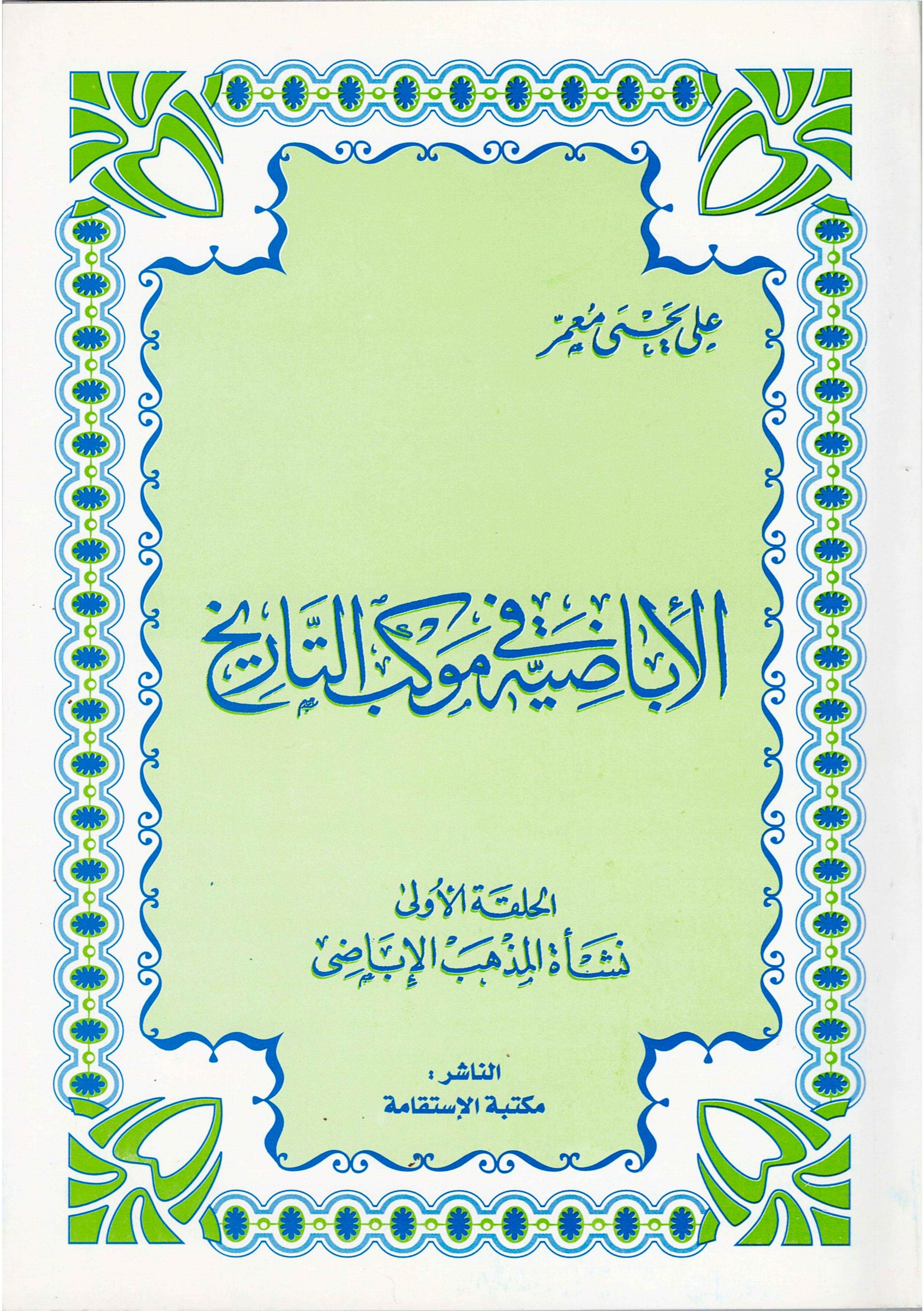

علي يحيى معمر
الإباضية في موكب التاريخ
الحلقة الأولى
نشأة المذهب الإباضي
الناشر:
مكتبة الإستقامة

علي يحيى مُعمَّر

الأباضية في موكب التاريخ

الحلقة الأولى

نشأة المذهب الإباضي

الطبعة الثالثة

جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ
فبـرايــــــــر ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد .

مقدمة

فى هذه اللمحات القصيرة أردت أن أعرض صفحات عن الإباضية ، أضعها بين أيدى المثقفين من الأمة ، وليست هذه اللمحات شيئاً بعيد المنال ، يحتاج إلى تقصى البحث ، وإطالة التنقيب ، وإنما هى صور يجدها عن كثب كل من خلصت نيته فى طلب الحق ، ودعته العزيمة الصادقة إلى الاطلاع على مصادر الشريعة لأهل هذا المذهب ، ودرس كتب السير والتاريخ المنصفة ، التى تحدثت عنهم، من موافقيهم ومخالفيهم .

والمذهب الإباضى ليس مذهباً سريّاً ، وليست أصوله التى ينبنى عليها خافية أو مجهولة ، وليس أتباعه ممن يستترون أو يختفون ، فهم لا يقيمون لغير الله وزنا فى هذا الوجود ، ولا ينتظرون عن أعمالهم جزاء من غير الله ، ولا يتبعون فى تصرفاتهم غير الحق .

إنه مذهب ملأ الدنيا حقاً وعدلا واستقامة ، وضرب المثل الأعلى فى النزاهة والإنصاف فى أدوار من التاريخ ، وسيملأ الدنيا بذلك عندما يأذن الله . ولست أقصد بذلك مثل خرافة الإمامة عند الشيعة ، ولا قصة المهدى المنتظر ، وإنما أقصد أن أقول : إن المذهب الإباضى يستمد قوته من الإسلام ، الذى اختاره الخالق ليكون دين البشرية جمعاء ، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لم ينحرف به عن صراط الله السوىّ غلوّ ولا تفريط ، ولم تنتشر فيه الخرافة التى يبثها مشائخ طرق يتصيدون بها الدنيا عن طريق الدين ، ولم يتجمد بتحكم فقهاء على العقول والمدارك فيمنعون الاجتهاد ، ويقصرونه على عصر أو ناس لا يحق لغيرهم أن يصلوا إليه . وتُعَطل العلوم والأفهام، فلا تُعطى حق الحرية فى البحث والتنقيب وإعطاء الأحكام .

بدعوى أن الاجتهاد أغلقت أبوابه ، واحتفظ الفقهاء الجامدون بالمفاتيح فى مخبأ سرى لا يهتدى إليه الباحثون .

قلت : إن المذهب الإباضى ، يستمد قوته من الإسلام نفسه ، لأنه يحتفظ بصفاء النبع الذى يصدر منه ، وعندما يثوب المسلمون إلى رشدهم ، ويعودون إلى دين ربهم ، نظيفاً من البدعة ، نظيفاً من الخرافة ، نظيفاً من الغلو ، نظيفاً من الجمود ، ونظيفاً من الأباطيل التى ألصقها جهل الإنسان بدين الله القويم . عند ذلك يجد المسلمون أنفسهم على الإسلام الحق ، الذى ملأ الدنيا رحمة وعدلا ، واستقامة ونزاهة وحقاً . وعلى ذلك الإسلام الحق لا تزال هذه الطائفة التى سماها التاريخ فرقة الإباضية ، وأصر أن يجعل لهم إماماً كما لغيرهم من الفرق أئمة . ولو أن إمامهم الحق الذى لا يهتدون بغير هديه ، ولا يقلدون سواه ، إنما هو محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليس لغيره حق الإمامة إلا بالأسوة الحسنة ، والتتبع للسنة الحميدة القويمة ، والإيمان المطلق بأن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القول والعمل ، هو الهدى الذى أمر الله أمة محمد أن يكونوا عليه . وإذا جارى الإباضية المؤرخين ، وانتسبوا إلى عبد الله بن إباض ، واتخذوا لهم اسماً كما لسائر الفرق أسماء ، فلا يعنى ذلك أنهم يقلدون الرجال ، ويقدسون أقوالهم ، ويتبعونهم اتباعاً أعمى ، ويرفعون أولئك الرجال إلى مراتب الكمال ، التى لا يصلها إلا أنبياء الله المصطفون ، وإنما يحرصون أن لا يأخذوا دينهم إلا على من توفرت لهم فيه الثقة والأمانة فى دين الله : الأمانة فى القول ، والأمانة فى العمل .

والإباضية لا يقدسون الرجال ، ولا يجعلونهم علامة على الحق ، ولا يوجبون تقليد غير المعصوم ، ولا يتبعونهم مالم يثبت الدليل الشرعى صواب مسالكهم ، أو يرد النص بأنهم على هدى محمد عليه السلام ، كما شهد الحديث الشريف لعمار رضى الله عنه ، ولبعض الصحابة رضوان الله عليهم .

قال فخر المجتهدين قطب الأئمة، رحمه الله تعالى فى رده على العقبى: « وان أردت أنهم مهملون لا إمام لهم، فقد سهوت، فإن إمامهم النبى صلى الله عليه وسلم »[1] .

ولن يعظم فى نظر الإباضية إلا المؤمن الذى يستمسك بغرز النبىء، عليه السلام ويسلك المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها، ومهما بلغ الرجل من العلم والعمل فإن فى مقاله مأخوذاً ومتروكاً غير من قال فيه الكتاب الكريم :

« وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى » .. « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

بهذه النظرة الواقعية ينظر الإباضية إلى أئمتهم، فهم بشر غير معصومين، تحتمل أقوالهم وأعمالهم الخطأ والغفلة والنسيان، ولذلك فما يصح تقليدهم لأفعالهم أو لأقوالهم، وإنما تؤخذ عنهم تلك الأقوال، ويقتدى بهاتيك الأفعال، حين يقيمون على صحتها وصوابها الدليل، الذى لا يقبل التأويل، فاتباعهم فى قول ليس تقليداً لهم، ولا اتباعاً لرأيهم، وإنما هو اتباع لمن يتبعون، وتقليد لمن به يقتدون، وبهديه يهتدون، وإلى حكمه يرجعون .

علي يحيى معمر

---

(١) الرد على العقبى ص ٣

هذا الكتاب

عنوان هذا الكتاب: « الإباضية فى موكب التاريخ » فهو يعنى أولا بالشئون التاريخية لهذه الفرقة من فرق المسلمين الكثيرة : المنتشرة فى العالم ، ويعنى بها ثانياً فى مختلف أوطانها ، ولم يكن الباعث على وضع هذا الكتاب ، غير الكشف عن جوانب مشرقة ، من تاريخ الأمة الإسلامية الكبرى ، فى طائفة من طوائفها المتعددة ، وفى ركن من أركان وطنها الفسيح .

وأنا حين أكتب عن هذه الفرقة من فرق المسلمين ، أو عن غيرها من الفرق ، أو حين أتحدث عن بعض الأماكن من هذا الوطن ، أو عن غيرها من الأماكن التى يسود فيها الإسلام ؛ لا أقصد الدعاية لها ، ولا التنقيص من غيرها ، لأننى أؤمن أن هذه الطوائف هى جوانب من الأمة ، وأن تلك الأماكن هى جهات لوطن الإسلام ، ولأننى أؤمن أن فى الفرق الأخرى وفى الأماكن الأخرى مثل ما عند هذه الفرقة ، ومثل ما فى هذه الأماكن من الأمجاد . ثم لأننى أؤمن أن فى الأمة الإسلامية — وهى تتكون من هذه الفرق — من عباقرة الرجال ، وفى الوطن الإسلامى — وهو يتكون من تلك الأماكن — من التربة الخصبة التى تنبت المجد والعظمة ، مالا يستطيع قلم أن يحصيه ، ولا باحث أن يستقصيه . وإذ قد كتب على الأمة الإسلامية — فى كثير من أدوار التاريخ — أن تنقسم إلى طوائف دينية مختلفة بعض الاختلاف ، فإننى أستطيع أن أزعم أن تلك الطوائف تنطلق إلى غاية واحدة وإن تعددت بها السبل . كما أستطيع أن أقول : إن لكل منها عباقرة وأعلاماً قدموا للإسلام من جهة ، وللبشرية من جهة أخرى ، أجل الخدمات.

وإذ قد كتب على الوطن الإسلامى أن يتجزأ إلى أوطان صغيرة ، تحكمها دول

مختلفة ،فإننى على يقين أن كل وطن من هذه الأوطان الصغيرة· أنجب من الفحول من يعد مفخرة فى جبين الإنسانية .

فإذا انحرفت فى تيار سياسى منحرف عن نهج الإسلام دول تسيطر على بعض البقاع الإسلامية ، فإن الأمة المسلمة الكبرى ، لم تزل ، ولن تزال تؤدى رسالتها . وإن الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة لا تزال تحافظ على هذه الرسالة فى تقديس واعتزاز . وذلك يعنى أن الكفاح فى سبيل الحق والخير والسعادة لم يتوقف ، ولن يتوقف مادام على وجه البسيطة مسلمون ، يؤمنون بقيمة التشريع الإلهى لمصلحة البشرية .

إننى أود أن يعلم القارئ الكريم ، أن الباعث على إخراج هذا الكتاب ، وقصر البحث فيه على فرقة واحدة من فرق الإسلام ، والتحدث عن رجال وأماكن معينة — أود أن يعرف القارىء الكريم ، أن الباعث على ذلك لا يرجع إلى عصبية مذهبية ، تضيق بالتفكير المنطلق فى دين الله من سائر الفرق ، ولا إلى جمود فى حب وطن ضيق ، لا يتسع لبلاد الإسلام . وإنما يرجع إلى أننى درست أصول هذه الفرقة ، وعرفت من تاريخها أكثر مما درست من غيرها وعرفت منه .

ثم إن أقلاما لم تستقص البحث ، ولم تتعرف الحقيقة ، قد تناولت هذه الفرقة بشىء من الخطأ ، فى فهم أصول العقيدة ، والخطأ فى فهم البواعث على العمل ، والخطأ فى فهم الأسباب التى نتجت عنها أحداث تاريخية ، حُمِّلت هذه الفرقة أوزارها ، وبرىء منها أولئك الذين تسببوا فيها .

والذى يهمنى فى هذا الكتاب ، أن أوضح بعض اللبس الذى نتج عن آثار الأقلام الخاطئة . فإننا فى أشد الحاجة إلى أن نزيح عن تاريخ الأمة الإسلامية فى مختلف فرقها وطوائفها ذلك الرين الذى رمتها به أقلام مغرضة أو مخطئة ، حتى إذا استقام تاريخ الأمة على حقيقته، وبرئت الفرق المختلفة مما قيل عنها بسوء نية

أو بحسن نية مما لا يتلاءم مع أصولها وقواعدها ومصادر تاريخها وتشريعها ، إذا استقام التاريخ على ذلك ، سقط عن الأمة كثير مما دسته الأيدى العابثة ، والآراء المخطئة ، والأقلام المغرضة ، سواء كان ذلك من كيد خارجى اندس فى التراث الإسلامى ، فآزرته عقول سطحية، لم تنتبه لما يحمله من عدوان . أو من كيد داخلى دعت إليه ألسنة لم يهذبها النطق بالشهادة ، فتقولت الأقاويل من أجل غرض دنيوى قريب، أو متاع فيها قليل .

فإذا استقام التاريخ الإسلامى الجيد ، وعرض كل أصحاب فرقة من فرق الإسلام عقائد تلك الفرقة ،وأحداث تاريخها ، ومدى ارتباطها بمصدرها الأول عرضاً واضحاً صريحاً، وأزيلت عنها ما ألصقته بها الدعاية المغرضة ، أو الجاهلة ، أو المستغفلة، وجد جميع أصحاب الفرق فى جميع مواطن الإسلام ، أنهم متشابهون كل التشابه ، فهم منطلقون لتحقيق الرسالة الخالدة التى أنيطت بهم ، فى طريق واحدة ، أو فى طرق متشابهة، منتهية إلى غاية واحدة .

رجوع إلى محجة الإسلام

لقد اشتط المسلمون فى ابتعادهم عن الدين ، فحادوا فى عملهم عن سيرة السلف الصالحين ، وأوغلوا فى تجافيهم عن سبيل الله ، فبعدوا عنه .

بَعَّدَ عنه المتعلمون ، بما زخرفته لهم وثنية الغرب ، ودعت إليه فورة الإلحاد التى تجتاح العالم ، وبثه فى الأفكار والعقول قوم لا يؤمنون بدين ، ولا يعملون لمثل ، ولا يقدسون الأخلاق والأعمال التى فرضتها السماء على الأرض .

وبعَّد عنه البسطاء ، بمادسته الإسرائيلية الماكرة ، وأدخله علماء السوء فى الإسلام ، ورضيه الفقهاء المغفلون من خرافة وبدعة ، ظنه الناس من دين الله . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ويبشر بالخير ، أن أقلاما مباركة أخذت على نفسها أن تذود عن الإسلام عدوان أعدائه ، وعدوان أتباعه على السواء :

١ — فأما عدوان أعدائه الذى يشنه الاستعمار والصهيونية بمختلف الأساليب وفى مختلف الواجهات ، ففيما يلى :

(◆) العدوان على الخلق الإسلامى ، بتيسير وسائل الانحلال ، ونشر أسباب المتعة المحرمة ، وتهوين الإثم فى ارتكاب ما حرّم الله فى الأبدان والأعراض والأموال ، وتشجيع القوميات الضيقة ، لتهون رابطة الإسلام المتينة ؛ ودعوى حرية الأديان وتساويها ، حتى تصبح الأديان الباطلة ، والوثنية الكافرة ، والإلحاد الذى لا يؤمن بالله ، يطغى على الإسلام فى بلد الإسلام ، وحتى تنفصل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض ، خوفا من إغضاب قلة تتبع ملة خاسرة . أو طائفة تحارب الإسلام فى عقر داره بعقيدة باطلة .

(◆) والعدوان على الفكر الإسلامى القويم ، بترويج مذاهب اجتماعية

وسياسية ، وضعها أصحابها لأهداف خاصة ، ومرامى مقصودة ، وأغراض دعتهم إليها مصلحة شعب أو دولة ، فأصبح أولئك الواضعون يتبوءون مقاعد التقديس ، وأصبحت أقوالهم وآراؤهم تورد للبرهان فى مواضع الاحتجاج ، ويرد بها على أحاديث المعصومين ، وعلى الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

(◆) والعدوان على التشريع الإسلامى ومبادئه الحكيمة ، التى أرسلها خالق الإنسان لإسعاد الإنسان ، بأنواع من التشريع الضيق المحدود ، الذى يضعه البشر ، وهم فى وضعه غير أمناء .

(◆) والعدوان على العقيدة الإسلامية ، التى تحرر الإنسان من أية عبودية لغير الله ، وتساوى بنى آدم جميعا فى كرامة البشرية ، بخرافة أصل الأنواع ، وقصة الطبيعة ، وما تزخرفه أكاذيب أتباع داروين فى قضية التطور .

٢ — وأما عدوان أتباعه ، فبعدم فهمهم لأسراره ، وعدم تمسكهم بحقائقه ، وبتجافيهم عن تعاليمه ، وتقاصيهم عن توجيهه ، وبعدم تحكيمهم له ، والرجوع إليه ، والرضا بحكمه فيما شجر بينهم من خلاف .

لقد عملت تلك الأقلام المباركة على نشر الوعى الدينى بين المسلمين ، تكشف عن الصفحات البيض المشرقات ، التى يجهلها العامة من أتباع الإسلام ، ويخشاها العارفون به من أعدائه ، فيتجاهلونها ، وتتصدى فى عزم وإصرار وثبات ، لرد الطعنات التى توجه إلى دين الله ، فى خفايا الدعاية المغرضة ، وبين أستار من العلاج المسموم لمشاكل الشرق ، ودعوى تحضير بنيه ، وإيصالهم إلى الركب الزاحف ، الذى يسرع فى الهيمنة على ميادين الحياة .

يسرنى أن أشير إلى تلك الأقلام المسلمة ، التى تستمد حياتها من روح الإسلام ، لتدفع عنه عدوان المعتدين ، ودسائس المستعمرين ، ومكر الصهاينة والصليبيين ،

ولتكشف تحريف العابثين ، وتخريف الجاهلين ، وعناد الجامدين ، وتجافى المخدوعين ، ولتدعو أبناء أمة محمـــد إلى الاستمساك بدين محمد ، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

يسرنى أن أشير إلى حملة هـذه الأقلام المباركة للمكافحة ، وإلى كل من يجرى فى هذا المضمار ، من الذين يحيون كل يوم سنة ، ويميتون كل يوم بدعة ، ويذودون عن الإسلام شبهات أعداء الإسلام .

ولست بذكرى هؤلاء المكافحين فى سبيل الله من حملة الأقلام الأحياء أنكر فضل غيرهم ممن جاهدوا لإعلاء كلمة الله ، فإن الجهاد فى سبيل الله لا ينكره مؤمن بالله ، ولكن الحصر لا يتأتى فى مثل هذا المقام ، فلست أنسى فضل الأستاذ الإمام ، وبعثه للروح الإسلامية فى المسلمين ، ولا أثر تلاميذه — تلاميذ الدرس أو تلاميذ الفكرة — الذين حرروا عقول المسلمين من الخرافة والبدعة والجمود ، وردوا مطاعن الكائدين من بقايا الحروب الصليبية المتعصبة .

كما لا أنسى فضل الإمام البناء ، الذى نفخ روح العزة والكرامة والكفاح فى نفوس الشباب المسلم ، وبذر فيهم روح الفدائية التى يسميها الإباضية مسلك « الشراء » ويعتبرونها مظهراً من كرامة المسلم وعزة الإسلام ، عندما تسيطر دول الطغيان والظلم ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

إننى لا أنسى فضل هؤلاء ولا فضل غيرهم ، ممن لم أذكره فى هذا الفصل القصير ، ولكننى أشرت بالتخصيص إلى أقلام مباركة حية ، لا تزال فى ميدان المعركة ، تواصل الكفاح فى سبيل الله ضد الطغيان : طغيان العدو الخارجى ، وطغيان العدو الداخلى .

طغيان المال ، الذى نفخ الكبر فى أفراد من البشر ، فاقتعدوا فى زعمهم عروش الآلهة .

وطغيان الفقر الذى نفخ الذلة والاستكانة فى قلوب أفراد من البشر ، فأصبحوا عبيداً لإخوانهم من بنى الإنسان .

طغيان العلم الملحد ، الذى لا يعترف إلا بالمادة ، ولا يؤمن إلا بالتجربة ، ولا يستسلم إلا لما تلمسه يداه ، وهو مع ذلك يجهل أقرب الحقائق إليه ، وأدنى المعارف منه ، فما يعرف شيئاً عن مجرى الحياة بين يديه ، ولا يفهم سراً من أسرار النفس البشرية التى يكافح لخدمتها ، ولا يصل إلى أقرب المعلومات عن الروح التى أودعها الخالق فى الإنسان والحيوان والنبات .

وطغيان الجهل الكافر الذى ينحجب عنه النور ، فلا يستبين الحق فيما دعت إليه رسالات السماء ، للتحليق بالإنسانية فى ملكوت الله ، ولا يرى الباطل فيما وسوست به شياطين الأرض من الإخلاد بابن آدم فى وحل الطين ، وقذارة التراب .

لماذا كتبت هذه الفصول ؟

يحلو لبعض المتعلمين الذين لا يعرفون من حقائق التاريخ ، وبدائه العلم ، وأوائل أصول العقائد ، ما يباعد بينهم وبين العامة ، ويخرجهم من حيز لأمية الثقافية . يحلو لناس من هؤلاء، أن يتزيوا بزى العلماء العارفين ، وأن يتحدثوا حديث الباحثين المطلعين ، وأن يستعرضوا أحداث الزمن فى الحاضر والماضى، ليطلقوا عليها أحكاماً قاطعة ، ويدلوا فيها بآراء ثابتة ، دون حاجة إلى حجة أو دليل ، غير أن أحدهم قرأ موضوعاً فى مجلة ، أو أن الآخر رأى فقرة تتحدث عن موضوع معين فى جريدة سيارة ، أو أنه لمح ذلك فى كتاب أو كتابين ، وقد يكون هذا الموضوع الذى لمحه صاحبنا ، لا يمكن لمحقق أن يصدر فيه برأى إلا بعد الجهود المضنية ، والأبحاث المستفيضة ، والاطلاع على عشرات المجلدات .

وقد استمعت إلى مناقشة لنفر من هؤلاء الفريق ، تناولوا فيها طوائف المسلمين بالعرض والتحليل . والتخطئة والصواب ، والهداية والإضلال ، وعرضوا فيما عرضوا إلى الإباضية ، فقال بعضهم : هم فرقة من الخوارج ، لأنه قرأ ذلك فى كتاب من كتب التاريخ ، وقال آخرون : بل هم فرقة من المعتزلة ، لأنهم يعتقدون أن القرآن الكريم مخلوق ، وذهب بعضهم إلى أنهم يتفرعون عن الأشاعرة ، لأنه سمع أنهم يؤمنون بالقدر خيره وشره من الله . ولم يهتم واحد من هؤلاء الذين يتطارحون النقاش ، ويتبادلون الآراء ، وينزلون الأحكام على عدد من الفرق الإسلامية ، بالتخطئة أو التصويب . أن يظهر الأسباب التى دعته إلى إصدار حكمه ، والأدلة التى يستند إليها فى إبداء رأيه ، غير ما قدمه من تعليل

ساذج فى بعض النقط لا يقنع عقلا ، ولا يصلح سبباً لوجهة النظر .

وقد رأيت أن أستعرض أحد تلك المواضيع التى دار حولها النقاش بقدر ما أستطيع ، وأن أحاول الإجابة عن تلك الأسئلة الحائرة التى تداولتها فيه الألسنة والشفاه ، وأن أتحدث عن بعض الأصول التى بنى عليها الإباضية مذهبهم ، واستمدوا منها عقيدتهم ، واقتبسوا منها أدلتهم وبراهينهم .

معنى الخوارج

هل الإباضية فرقة من الخوارج ؟

قبل أن يجيب أى باحث عن هذا السؤال ، يجب أن يحدد معنى كلمة الخوارج وما تدل عليه .

يطلق بعض المؤرخين كلمة الخوارج ، على أولئك الناس الذين اعتزلوا أمير المؤمنين علياً بن أبى طالب عندما قبل التحكيم ورضى به ، لأنهم فى نظر هؤلاء نقضوا بيعة فى أعناقهم ، وخرجوا عن إمامة مشروعة .

ويطلقها فريق من المتكلمين فى أصول العقائد والديانات، وهم يقصدون بها الخروج من الدين، استناداً إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إنّ ناساً من أمتى يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية] وقد ورد الحديث بروايات متعددة وألفاظ مختلفة (١) .

أما الفريق الثالث: فيطلقها ويقصد بها الجهاد فى سبيل الله، استناداً إلى قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وإذا أباح بعض المؤرخين لأنفسهم أن يطلقوا هذه الكلمة — كلمة الخوارج — على جميع أولئك المتمسكين بإمامة على ، المصرين على أنها حق شرعى لا يجوز فيه التردد ، وأنه ليس من حق حتى علىٍّ نفسه ، أن يشك فى إمامة أجمعت عليها

---

(١) ورد فى مسند الربيع بن حبيب ، الجزء الأول صفحة ١٢ الطبعة الثانية ١٣٤٩ هكذا: أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، تنظر فى القدح فلا ترى شيئاً ، ثم تنظر فى الريش فلا ترى شيئاً وتتمارى فى الفوق . »

الأمة ، ولا أن يتساهل فيها ، أو يقبل عليها المساومة ، وأن معاوية وأتباعه فئة باغية ، يجب عليهم الرجوع إلى حظيرة الإمامة والأمة ، إما طوعا وإما كرها بنص الكتاب ، فإذا رضخ على لطلب البغاة ، ووضع الحق اليقينى موضع الشك ، وتنازل عن الواجب الذى أناطته به الأمة ، وألزمته به البيعة ، فإن هذه البيعة تنحل من أعناقهم ، وهم بعد بالخيار .

قلت: إذا أباح بعض المؤرخين لأنفسهم ، أن يطلقوا كلمة الخوارج ، على هذه الطائفة ، فإنه يحق لنا نحن أن نتريث ونتثبت حتى يستبين لنا طريق الصواب ، ويتضح منهج الحق .

ولكى ننصف هؤلاء القوم ، الذين أطلق عليهم بعض المؤرخين لقب الخوارج ، وحاربهم إخوتهم المسلمون بالدعاية الكاذبة والصادقة ، وقاتلوهم ! كما لم يقاتلوا حتى أعداءهم فى ذلك الحين ، وطاردوهم ! كما لم يطاردوا حتى الزندقة والإلحاد .

لكى لا نظلم هؤلاء القوم ، ولكى نوضح موقفهم كما يرونه فى ذلك الحين . دون أن يتسرب إليه خطأ التاريخ المغرض ، أو تحامله عليهم ، ودون أن نهتم بالدعاية الكاذبة ، التى تقلب حقائق التاريخ ، قلبا لا يرضاه التفكير السليم ، والمنطق القويم ، تلك الدعاية التى تعاون على بثها وإشاعتها ، كل من الأموية المتعصبة المتسلطة ، والشيعة الغالية المتطرفة ، لكى نوضح موقف هؤلاء القوم ، يجب أن نستعرض حركة الثورات[1] منذ فجر الإسلام ، ونضع صورته الواضحة بين أيدينا ، لتصح المقارنة، ويكون الاستنتاج أقرب إلى الحق ، وأدنى إلى الدقة .

---

(١) لقد استعملت كلمة الثورة فى حلقات هذا الكتاب ، وأنا أقصد بها الحركة التى يقوم بها ناس لتغيير وضع لا يرضيهم دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا مهما كانت بواعث هذه الحركة . وأيا كان هذا الوضع . ولم أقصد باستعمال كلمة ثورة فى هذه الحلقات . ما قد تشعره هذه الكلمة من المعنى العميق الذى يقصد به التغيير الجذرى فى حياة أمة وعقيدتها .

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كفاح مستمر ضد الوثنية التى تسيطر على العالم ، وجهاد متواصل ضد القوى للتكتلة التى تعارض انطلاقة الدعوة لتحرير الإنسان من عبادة غير الله . فلما جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأتم الله نعمته على أمة محمد ، ورضى لهم الإسلام ديناً ، توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما أدى الرسالة ، وبلّغ الأمانة . . .

وبايع الناس أبا بكر خليفة له ، ولكن بعد هذه المبايعة مباشرة ، وقعت أول ثورة فى الإسلام ، من أناس كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكان من هؤلاء الثائرين من ارتد على عقبيه ، وأنكر ما اعترف به ، ومنهم من عزت عليه أمواله ، فامتنع من أداء الزكاة . . .

فكان فى الموقف الحازم الصلب الذى وقفه منهم خليفة رسول الله ، رغم معارضة بعض الصحابة له ، كان فى هذا الموقف الحازم الصلب ، إقرار لحكم الله ، وتثبيت لقدم الإسلام ، ونصر لدين الله ، وقضاء مبرم على أصول هذه الثورة أو الفتنة ، والقائمين بها ، فاستتب الأمن ، واستقرت الأمور ، واستمر المسلمون فى أداء الرسالة التى دعا إليها محمد ، طيلة خلافة أبى بكر ، وطيلة خلافة عمر ، ذلك العهد المجيد الذى يعتبر بحق امتداداً لعصر النبوة . وتولى عثمان الخلافة ، فسارت الأمور ست سنوات كاملة سيرتها فى زمن الخليفتين السابقين ، ثم بدأت الأحوال تتغير ، وظهرت مشاكل جديدة ، وتعثر سير الخلافة ، فقد أصبح نقد أعمال الخليفة والنيل من سلوكه يتفشى على كثير من الألسنة ، ويجرى فى كثير من المجتمعات ، ولم تتم ست سنوات أخرى حتى كانت الثورة الجامحة التى ذهبت فيما ذهبت بحياة عثمان بين سمع وبصر كثير من الصحابة ، وكانت هذه هى الثورة الثانية بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبايع المسلمون علياً بن أبى طالب أميراً للمؤمنين ، وكان أول من بايع: طلحة

ابن عبد الله، والزبير بن العوام، ولـكن ما كادت تتم البيعة حتى كان طلحة والزبير يحملان لواء الثورة مع جماعة من كبار الصحابة ، وقد استظهروا بأم المؤمنين عائشة . ووقف الخليفة مع الثائرين موقفاً حازماً صلباً ، وقتل فى هذه الثورة الطاحنة عدد غير قليل من المسلمين ،ذهب فيمن ذهب فيها طلحة والزبير ، وثابت أم المؤمنين ، ورجع بقية الثائرين إلى حظيرة الإمامة والأمة ، وكانت هذه هى الثورة الثالثة فى الإسلام .

لم تـكد تنتهى هذه الحرب الطاحنة ، ويعود إلى البلاد الهدوء والاستقرار ، ويعرف معاوية أن الثورة فشلت ، وأنه معزول عن ولاية الشام لا محالة ، حتى أعلن الثورة بالشام ، وهو حينئذ عامل من عمال الخليفة ، وأظهر أنه يطالب بدم عثمان ، وقد استعد أمير المؤمنين لإطفاء هذه الثورة ، كما أطفأ الثورة التى سبقتها ، وجهز جيشه القوى ، وسار به نحو الشام ، حيث التقى بالجند الثائر فى الموضع المعروف « صفين » وبدأت المعركة ، ثم استمر القتال حتى ظهرت طلائع النصر ، وأشرف جيش الخليفة على امتلاك زمام المعركة ، ولم يبق للقضاء على هذه الثورة الجامحة إلا لحظات ، عبر عنها الاشتر النخعى (بفواق الناقة) التجأ الثائرون إلى الحيلة والخدعة ولجأوا إلى المـكر والمـكيدة ، فرفعوا المصاحف وهم يصيحون يا أهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله .

طلب الثائرون هدنة ، ودعوا الخليفة الشرعى وجيشه إلى تحكيم حكمين .

وقد فطن أمير المؤمنين وبعض من جيشه إلى هذه الخدعة ، وعرفوا القصد من هذه الهدنة ، ولـكنه بدلا من أن يقف موقفه الحازم ، ويوالى حربه ضد الثائرين ، حتى يتحقق النصر — وقد تحققت بشائره — ويلقى البغاة بأسلحتهم ، ويعودوا إلى صف الأمة الذى انشقوا عنه ، وبغوا عليه ، بدلا من أن يقف موقفه الحازم ذلك ، استجاب لدعاة الهزيمة ، وأخذ بنصيحة طلاب الدعة ، وأكثرهم موعود من

معاوية أو من عمرو بن العاص[1] . ورضى بالتحكيم وقبل المدنة ، وأمر بإيقاف القتال فى الحال .

وهكذا انتهت هذه الثورة الرابعة إلى هذا الموقف المائع ، الذى جعل حق علىّ فى الخلافة يتساوى مع حق معاوية ، وجعل نصيب البغاة الثائرين من الصواب يساوى نصيب جيش الأمة الذى يدافع عن خلافة شرعية تمت بالشورى ، وانعقدت بالبيعة .

وتداعى الذين فطنوا إلى خدعة الهدنة من أصحاب على وحذروه من قبولها ، وأخبروه أن قبولها يعنى الشك فى خلافته والتنازل عنها . وكانوا مصرين أن الخلافة الشرعية حق لا يتطرق إليه الشك ، ولا يجوز فيها الرجوع ، ولا تقبل فيها المساومة .

وإذ خطر لعلىّ أن يستجيب لدعاة الهزيمة من جيشه ، والماكرين من عدوّه ، وأن يشك فى نفسه ، والحق الذى بيده ، ويتنازل عن الشرف الذى أولاه المسلمون ، ويساوى بينه وبين أحد عماله فى قضية أخذ فيها عهداً من الأمة ، وأخذت منه فيها موثقاً وعهداً . ورضخ الى تحكيم رجال فيما نزل فيه حكم الله .

حين فعل علىّ ذلك ، تداعى أولئك الذين لم يرتضوا التحكيم ، وحذروا عليا من قبوله . وهم يرون أن معاوية باغ لا حق له ، وأن بيعة على قد انفسخت بموافقته على الهدنة ورضائه بالتحكيم ، فلم تبق لأحد فى أعناقهم بيعة ، وليس لأحد عليهم ميثاق . تداعوا إلى أن يعتزلوا جيش على ، وركنوا الى موقع يسمى حروراء فانعزلوا فيه ، ينتظرون تجدد الحوادث ، واتجاه الأمة فى قضية الخلافة ، ويمكن أن يسمى هذا الانعزال عن جيش على : بالثورة الخامسة ، ولو أن هذه الثورة الى هذا الحين كانت ثورة سلبية ، وموقف أصحابها كان موقف المحايد الذى ينتظر مجرى الأمور ، وقد

---

(١) قال أبو العباس الشماخى فى السير ص ٤٨ « وكان معاوية يمنيهم . »

جرت الأمور بأسرع مما يتوقع لها، فما بلغ الموعد الذى حدده الطرفان لانتهاء الهدنة حتى اجتمع الناس، وأعلن أبو موسى الأشعرى مندوب علىّ: عزل علىّ عن الخلافه، وترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون.

كان هؤلاء المحايدون يتتبعون منطق الحوادث والواقع، فهم ينظرون إلى معاوية نظرتهم إلى باغ يحاول أن يفرض نفسه بالمكر والحيلة، ولذلك فهم لا يقيمون أى وزن لدعوى عزله، فهو لم يتول أمر الخلافة إلى ذلك الحين، لا بالإكراه ولا بالشورى، فلا معنى لعزله من منصب ليس هو فيه، كما لا يقيمون أى وزن لتولية عمرو بن العاص له، لأن عمروا لم يفوضه المسلمون فى تولية أمير المؤمنين. أما نظرتهم إلى علىّ فقد كانوا يتوقعون أن يتفق الحكمان على إقراره فى الحكم، وحينئذ ترجع إلى علىّ الصبغة الشرعية التى تنازل عنها لإثباتها، ويجب على المسلمين حينئذ أن يوحدوا صفوفهم تحت طاعته ما قام فيهم بكتاب الله. ولكن المندوب الذى اختاره على ليمثله فى هذه القضية الظالمة، أعلن أنه عزل علياً عن أمر المسلمين، وأن الأمر أصبح للشورى والاختيار، وتأيد موقف هؤلاء المحايدين، وانضم إليهم عدد آخر ممن كانو يقفون إلى جانب علىّ حتّى ذلك الحين، وبحثوا الأمر فيما بينهم على أساس أن المسلمين أصبحوا دون خليفة، فهذا معاوية باغ ظالم لا يمكن أن يتولى أمر المسلمين، وهذا علىّ يعزله المندوب الذى اختاره للتحكيم، وإذن فليختاروا... واختاروا: عبد الله بن وهب الراسبى، فبايعوه أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين بعد علىّ بن طالب، فهو الخليفة الشرعى الخامس فى نظرهم

وبهذه الخطوة أصبحت الأمة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول: دولة يرأسها معاوية ـ وإن لم يبايعه عليها أحد إلى ذلك الحين ـ ودولة يرأسها علىّ بن أبى طالب بعد أن فشلت فى نظره حكومة الحكمين ـ وعاد فاستمسك بالبيعة الأولى دون أن يعترف بعزل أبى موسى الأشعرى له مندوبه فى قضية التحكيم ـ ودولة يرأسها

عبد الله بن وهب الراسبى ـ بعد أن بايعه جمع كبير من الذين انفصلوا عن علىّ عند قبول التحكيم ، ثم عند إعلان الحكم بعزل علىّ عن الخلافة ـ ومع كل فرقة من هذه الفرق جمع غير قليل من كبار الصحابة ، وفيهم بعض المشهود لهم بالجنة .(١)

على أن هناك فريقاً رابعاً اعتزلوا هذا النقاش الذى وقع بين المسلمين ، وبعدوا عن قضية الخلافة ، فلم يطالبوها لأنفسهم ، ولم يؤيدوا واحداً من طالبيها ، ومن هذا الفريق السادة : سعد بن أبى وقاص ، وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، وأسامة بن زيد .

بعد أن جمع الإمام علىّ جيشه ، ومن بقى تحت طاعته من الجند ، فكر فى إعادة الكرة على معاوية وإخماد ثورته ، ومحاولة إخضاعه من جديد .

ولكن بعض أصحابه أشاروا عليه بمحاربة عبد الله بن وهب الراسبى ، هذا الخليفة الجديد الذى وصل إلى منصب الخلافة عن طريق البيعة ، وهو الطريق الشرعى للخلافة .

واقتنع علىّ بصواب هذا الرأى ، فعدل عن محاربة معاوية إلى محاربة عبد الله ابن وهب ، وكان أتباع عبدالله بن وهب يعتقدون أن إمامهم هو الإمام الحق وأن كلاً من على — بعد التحكيم والعزل — ومعاوية ثائران يجب عليهما الرجوع إلى حظيرة الإمامة والأمة .

هذه خلاصة الثورات التى اشتعلت فى ذلك العصر وذهب ضحيتها عشرات الآلاف من أبطال الإسلام ، وقد حاولت أن ألخصها بإيجاز قدر المستطاع ، مع

---

(١) من المشهود لهم بالجنة عمار بن ياسر رضى الله عنه . وقتل فى صفين مع على ، بعد أن رفعت المصاحف ، فلم يستجب لدعوة الهدنة ، واندفع الى المعركة حتى قتل ، وقد قيل لمعاوية فى ذلك فأجاب بقوله : (قتله من أخرجه) . ومن المشهود لهم بالجنة حرقوص بن زهير السعدى . فقد حدثت عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها يوما : أول من يدخل من هذا الباب ، من أهل الجنة . فدخل حرقوص ابن زهير السعدى ولحيته تقطر ماء ، وقد تكرر الحديث ثلاثة أيام . وقتل حرقوص بن زهير مع من أنكر التحكيم .

عناية بإيضاح القضية من الزاوية التى يراها بها أولئك الذين يطلق عليهم فى بعض كتب التاريخ والأدب كلمة الخوارج . أولئك القوم الذين يرون أنهم أصحاب الحق، وأن البيعة لم تنعقد بطريق شرعى بعد التحكيم إلا لعبد الله بن وهب الراسبى ، ذلك الخليفة الذى بايعه جمهور من الأمة، فيهم كثير من كبار الصحابة ، من بينهم بعض المشهود لهم بالجنة . .

فإذا رجعنا إلى أول هذا البحث ، وأردنا أن نستخلص منه طائفة معينة من الطوائف التى قامت بالثورة ، لنطلق عليها اسم الخوارج ، فينطبق هذا الإسم عليها انطباقا كاملا ، من الناحيتين السياسية والدينية ، ويكونون خوارج عن الخلافة وخوارج عن الدين ، ينطبق عليهم الحديث الذى أوردناه سابقاً .

فأى هذه الطوائف الثائرة يمكننا أن نطلق عليها هذا الإسم ملاحظين فيه معنى الخروج عن الإسلام ونحن مطمئنون إلى صحة أحكامنا ، ومنطقية استدلالنا وعدم انسياقنا إلى تيار معين من تيارات التاريخ .

أما أكثر أوائل المؤرخين ، وقد كانوا إما تبعاً للشيعة أو صنائع للأمويين يعملون جاهدين على إرضاء متبوعيهم ، فقد وجدوا الأمر سهلا لم يكلفهم عناء ، فأطلقوا كلمة الخوارج على العدو المشترك للأمويين والشيعة ، أطلقوها على تلك الطائفة من المسلمين التى اعتزلت علياً عند التحكيم وبايعت عبد الله بن وهب إماماً ، وثارت على الظلم ، وفساد الحكم فى الدولة الأموية ، ومن بعدها ممن سار فى ذلك الطريق ، وتنكب عن سيرة الخلفاء الراشدين . ولكى يصبغ أولئك المؤرخون هذه التسمية باللون المقبول ، ربطوا المعنى السياسى لكلمة الخروج بالمعنى الدينى . وقد عملت السلطة والدعاية فى كلتا الطائفتين : الشيعة والأموية ، على تثبيت هذا الإطلاق ونشر هذه الأقاويل ، حتى وضعت مئات الأحاديث المكذوبة فى الطعن على الخوارج ، والتشنيع عليهم ، ونسبة المروق والكفر إليهم جميعاً ، أو إلى أفراد

من رؤسائهم وزعمائهم ، وقد كان المهلب بن أبى صفرة القائد الذى ضحى بدينه لدنيا بنى أمية ، من أكثر الواضعين لهذه الأحاديث المكذوبة فى الطعن على الخوارج ، حتى اشتهر بذلك وعرفه به الناس ، فكانوا يقولون إذا رأوه خارجاً : « راح يكذب »[1] .

كان الأمويون والشيعة يحاولون بكل ما استطاعوا أن يلصقوا هذا اللقب ، لقب الخوارج — بعد أن فسر بالخروج من الدين — بهؤلاء الثائرين الذين ينادون فى إصرار وشدة ، بالمبادىء العادلة فى الخلافة ؛ وكان الشيعة يحاولون بما أوتوا من براعة أن يحصروها فى بيت علىّ ، كما كان غيرهم من الطامعين فيها ، يشترط لها الهاشمية أو القرشية أو العروبة ، حسب المصلحة السياسية لأصحاب الآراء فى ذلك الحين . وكل هذه الاتجاهات تجتمع على محاربة الاتجاه الذى اتجه إليه أتباع عبد الله بن وهب الراسبى . ذلك الاتجاه العادل الذى يرى أن المسلمين متساوون فى الحقوق والواجبات . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى] .

قلت فى صدر هذا الحديث : إن عدداً من الثورات وقع منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى انتهاء خلافة الإمام علىٍّ بن أبى طالب ، فأىُّ هذه الثورات يحق أن يطلق على القائمين بها لقب الخوارج ، مع ملاحظة الخروج عن الخلافة الشرعية والمروق من الدين ؟

---

(١) جاء فى فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين الطبعة السادسة ما يأتى : « وكان مما حاربهم به المهلب ابن أبى صفرة اختلاق الأحاديث عليهم : فقد كان يضع الحديث ليشد به أزر قومه ، ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ، ويقول : إن الحرب خدعة ، وكان حى من الأزد إذا رأوا المهلب خارجا قالوا : راح يكذب ! وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كل الفتى ‏ ‏ لو كنت تصدق ما تقول . »

ولعل هذا وأمثاله هو السر فيما ترى من أحاديث كثيرة ملئت بها كتب التاريخ والأدب فى ذم الخوارج .

لتسهيل الإجابة على هذا السؤال أستطيع أن أقسم هذه الثورات إلى ثلاثة أقسام : —

الأول : ثورة ليس لها تعليل ولا أسباب غير عدم تمكن الاسلام فى قلوب القائمين بها . وعدم إيمانهم الإيمان الصحيح بتكامل الرسالة المحمدية ، ويتجلى هذا فى الثورة الأولى ، التى ارتد فيها فريق، وامتنع فريق آخر عن أداء الزكاة .

الثانى : ليس لها أسباب ظاهرة معقولة : أما أسبابها الحقيقية الخفية ، فهى النزاع على مناصب الدولة ، من خلافة أو عمالة ، ويتمثل ذلك فى الثورة الثالثة التى قام بها طلحة والزبير ، وفى الثورة الرابعة التى قام بها معاوية بن أبى سفيان .

القسم الثالث . ثورة استندت إلى أسباب ظاهرة يتراءى للناظر أنها معقولة ، ويتمثل ذلك فى الثورة الثانية التى قتل فيها عثمان ، وفى الثورة الخامسة التى اعتزل فيها جماعة من جيش علىّ علياً بعد التحكيم ، وعزل أبى موسى الأشعرى له .

فلو كان المقصود من كلمة الخوارج ، هو الخروج السياسى عن خليفة تمت له البيعة الشرعية ، لكان إطلاق هذه الكلمة على طلحة والزبير ، أو على معاوية وأتباعه ، أو على الثائرين على عثمان أظهر وأوضح ، أما إذا لوحظ المعنى السياسى مع المعنى الدينى فإنه لا يمكن إطلاق هذه الكلمة عليهم ، كما أنه من العسير إطلاقها على المعتزلين لعلىّ .

والسبب فى هذا العسر أن هؤلاء الثائرين سواء كانوا من القسم الثانى أو من القسم الثالث ، إنما ثاروا غير منكرين لأصل من أصول الإسلام ، ولا مكذبين بمعلوم من الدين بالضرورة ، ومع كل طائفة منهم فريق من كبار الصحابة ، فيهم بعض المشهود لهم بالجنة .

وبناء على هذا فإن أحاديث المروق ـ إذا صحت ـ لا يكون المقصود منها إلا أصحاب

الثورة الأولى ، أولئك الذين خرجوا على خلافة أبى بكر منكرين للشريعة أو لأصل من أصولها ، فإن هؤلاء يستطيع الباحث أن يطلق عليهم كلمة الخوارج ، وهو يقصد بهذه الكلمة معنييها السياسى والدينى وهو مطمئن ، لخروجهم عن خلافة مجمع عليها ، وإنكارهم للاسلام جملة بعد ما آمنوا به ، أو تكذيبهم بركن ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، إنكاراً استحقوا به أن يحاربهم خليفة رسول الله الأول حرباً لا هوادة فيها ، مصداقا لقوله عليه السلام :

[لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود] — إن صح الحديث — وقد قتلهم خليفته رضى الله عنه قتل ثمود تحقيقاً لخبره عليه السلام .

ويستأنس لهذا الرأى من توقعه صلى الله عليه وسلم أن يدركهم ، فإن هذا يدل على قرب زمنهم منه ، وأنه كان يأمل أن ينتقم لله منهم ، ولكن إرادة الله شاءت أن يتأخروا عنه قليلا ، وأن تكون فتنتهم امتحاناً لصلابة أبى بكر ، وأن تكون عقوبتهم على يد الصِّدِّيق رضى الله عنه .

وكما يستأنس بهذا الحديث لهذا المعنى ، كذلك يستأنس بحديث المروق فى الرواية التى تقول (سيخرج أو سيمرق) فإن استعمال السين يدل على قرب الخروج ، ولم يكن أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخروج الذى قضى عليه الصديق وحارب أهله حرب ثمود .

على أننى أقف وقفة طويلة عند هذه الأحاديث التى تصف فرقا من المسلمين بالمروق من الدين . ولو أننى لا أملك الآن الأسباب التى تحملنى على الشك فى صحتها .

ويظهر من سياق الحوادث أن هذه الأحاديث التى تتحدث عن الخروج . لم تكن معروفة عند حدوث الثورات الأولى ، وإلا فكيف أمكن أن لا تدور على الألسنة ، وأن لا يوصف بها الخارجون عن الخلافة فى زمن أبى بكر وعثمان

وعلىّ ، ولا الخارجون عن الدين فى زمن الصدّيق ؟ لماذا تبقى محفوظة لا يستفيد منها أنصار الخلافة أو خصومها فى أربع ثورات جامحة ذهب ضحيتها عدد غير قليل من المسلمين الأبطال . إن دل هذا على شىء فانما يدل على أن هذه الأحاديث لم تكن معروفة عند وقوع هذه الثورات ، وإنها إنما وضعت بعد ذلك قصداً للتشنيع على أهل النهروان ، ولحمل علىّ على قتالهم والقضاء عليهم، خوفا من أن يتحرج علىّ من دمائهم ، ويتردد فى قتالهم ، ويفكر تفكيرا منطقيا فى أنه قد يكون لهؤلاء حق ، ولرأيهم سند .

وقد كان علىّ شديد المحاسبة لنفسه ، كثير التفكير فى أعماله السابقة ، يَزِنُ ما أقدم عليه من أحداث ، ويدل لهذا ما قاله أبو العباس الشماخى فى كتابه القيم « السير » : « فقال الأشعث ناجز القوم ، وإن كلموا الناس أفسدوهم علينا »(١) فالشيعة الذين يحيطون بعلىّ ، وهم يكافحون لكى يبنوا دولة ، يخشون أن يتصل أهل النهروان بالناس، وأن يقنعوهم بما لديهم من حجة وبرهان ، إن قبول التحكيم خطأ فى السياسة ، وإن خلافة علىّ بعد التحكيم والعزل باطلة ، وإن البيعة ساقطة عن الأعناق ، وإن الخليفة الحق هو عبد الله بن وهب الراسبى ، الذى بايعه جمهور غير قليل من المسلمين ، كان الشيعة يخافون أن يتصل أهل النهروان بالناس ، ولذلك فهم يريدون أن يقضوا على هذه الآراء قبل أن تنتشر فى الناس ، ويفهمها الجميع ، ويقتنعوا بصحتها .

ولا يمكن القضاء على هذه الآراء إلا بالقضاء على أصحابها ، فلو تردد علىّ فى هذا الأمر ، وتحرز من إراقة الدماء ، فإن كل شىء سوف يضيع ، ولذلك فيجب أن يحمل بشتى الوسائل والطرق على اتخاذ هذه الخطوة الحازمة الحاسمة .

وقد استطاعوا أن يقنعوه ، فاقتنع برأى الأشعث ، واتخذ هذه الخطوة ، ونفذ

---

(١) السير ص ٥٢

فـكرة المناجزة ، فقضى على أهل النهروان ، ولـكنه لم يستطع أن يقضى على الفـكرة التى دعوا إليها ، هذه الفـكرة التى تسربت بما فيها من صدق وصراحة وواقعية إلى كثير من العقول ، حتى أصبحت مبدءا يناضل عنه معتنقوه بصبر وشجاعة وثبات .

وخلاصة البحث أن كلمة الخوارج ، أطلقها بعض المؤرخين على أتباع عبد الله ابن وهب الراسبى إطلاقا تاريخيا وأدبيا ، بحيث لاتنصرف إلى غيرهم ، وليس فى هذا كبير بحث ، فإن اطلاق اسم على مجموعة من الناس ليس بذى أهمية إذا كان هذا الإطلاق مجرد تسمية . أما إذا روعى فيه مدلول دينى فإنه يحسن بنا أن نتريث قبل أن نطلق هذا الحـكم الرهيب ، الذى يسلطه التاريخ المغرض على رؤوس بعض الطوائف الإسلامية فى قساوة وغلظة ، فى الحين الذى نعترف فيه أن هذه الطوائف تؤمن برسالة « محمد » وبتكاملها ، وبما جاء فيها ، وتستند فى آرائها ونظرياتها إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .. وتعتمد فى محاججتها على ما جاء فى التنزيل ، وورد فى خبر المعصوم ، وأجمعت عليه الأمة ، التى لا تجتمع على ضلال ، ولو أنهم انحرفوا فى الفهم ، وأخطأوا فى التأويل .

وقد يعتقد بعض من يطلع على هذا الفصل أننى أريد الدفاع عن الخوارج ، وتبرير أعمالهم ، وتصحيح أخطائهم .

والواقع أننى لم أقصد إلى شىء من ذلك ، وكل ما فى الأمر أنه ساقنى إلى هذا الحديث ، المنطقية التى وجدتها فى أبحاثهم ونظرياتهم فى قضية الخلافة ، وحاولت جهد المستطاع أن أصور الحوادث والدواعى إليها فى ذلك العصر دون أن أنساق مع تيار من التيارات ، وأجعل أحكامى أكثر دقة وتجرداً من المؤثرات السياسية والعاطفية والمصلحية ، التى أثرت على كتّاب التاريخ والباحثين فى العقائد فى تلك العصور السوابق . والله الموفق للصواب .

ويسرنى أن أصرح فى آخر هذا الفصل ، أننى أجلُّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأننى أدع له أصحابه امتثالا لأمره عليه السلام ، فلا أقول فيهم إلا خيراً ، وأننى أعلم أنه لو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً فلن يبلغ مُدَّ أحدهم أو نصيفه ، وحسبهم شرفا أن الله اختارهم لصحبة رسول الله ، وأنهم الدفعة الأولى من حملة مشعل الإسلام ، ولعل الله اطلع عليهم فغفر لهم ، كما قال عليه السلام فى أهل بدر . أما أولئك الذين وردت فيهم أحاديث تعيب عليهم مسلكا أو قولا فاننى لا أتجاوز فيهم معنى تلك الأحاديث ، وعهدتها على راويها وإننى أستغفر الله من الزلل وأضرع إليه سبحانه أن يغفر لى ما قد يكون انزلق إليه القلم مما لا يرضى عنه ، إنه ولى التوفيق والهداية .

الخوارج فى نظر الإباضية

من هم الخوارج فى نظر الإباضية ؟

يرى الإباضية أن إطلاق كلمة الخوارج على فرقة من فرق الإسلام لا يلاحظ فيه المعنى السياسى الثورى ، سواء كانت هذه الثورة لأسباب شرعية عندهم أو لأسباب غير شرعية ، ولذلك فهم لم يطلقوا هذه الكلمة على قتلة عثمان ، ولا على طلحة والزبير وأتباعهما ، ولا على معاوية وجيشه ؟ ولا على ابن فندين والذين أنكروا معه إمامة عبد الوهاب الرستمى . وإنما كل ما يلاحظونه إنما هو المعنى الدينى الذى يتضمنه حديث المروق فى صيغه المختلفة .

والخروج عن الإسلام يكون : إما بإنكار الثابت القطعى من أحكامه ، أو بالعمل بما يخالف المقطوع به من نصوص أحكام الإسلام ديانة ، فيكون هذا العمل فى قوة الإنكار والرد . وأقرب الفرق الإسلامية إلى هذا المعنى هم الأزارقة ومن ذهب مذهبهم ممن يستحل دماء المسلمين وأموالهم ، وسبى نسائهم وأطفالهم ، يقول العلامة أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم فى كتابه الدليل والبرهان [1] : (وزلة الخوارج نافع بن الأزرق وذويه حين تأولوا قول الله تعالى « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » فأثبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصى ما أتوا ولو أصغرها) انتهى ، وقال فى موضع آخر من نفس الكتاب : (وأما المارقة فقد زعموا أن من عصى الله تعالى ولو فى صغير من الذنوب أو كبير ، أشرك بالله العظيم ، وتأولوا قول الله عز وجل « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » فقضوا بالاسم على جميع من عصى الله عز وجل ؛ أنه مشرك ، وعقبوا بالأحكام ، فاستحلوا قتل الرجال ، وأخذ الأموال . والسبى للعيال ، لحسبهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن ناسا من أمتى يمرقون من الدين مروق السهم

(١) الدليل لأهل العقول ص ١٥

من الرمية ، فتنظر فى النصل فلا ترى شيئا ، وتنظر فى القدح فلا ترى شيئا، وتمارى فى الفوق ، فليس فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أشبه شىء بهذه الرواية منهم ، لأنهم عكسوا الشريعة ؛ قلبوها ظهراً لبطن ، وبدلوا الأسماء والأحكام ، لأن المسلمين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعصون ولا تجــرى عليهم أحكام المشركين ، فليت شعرى فيمن نزلت الحدود ، فى المسلمين أو فى المشركين ؟ فأبطلوا الرجم والجلد والقطع ، كأنهم ليسوا من أمة أحمد عليه السلام . احوالت أعينهم فنظروا فى المعنى الذى أمر الله به المسلمين أن يستعملوه فى المشركين ، من جهاد العدو والجهد فى محاربتهم ، فاستعملوه فى المسلمين) انتهى . وقال فى نفس الكتاب[1] : (وأما المارقة وهم الخوارج ، فلن يخفى على عاقل بسيرة ما ساروا فى أهل الإسلام ، كسيرة أهل الإسلام فى أهل الاوثان والأصنام ، كأنما بعث إليهم رسول آخر غير محمد عليه السلام ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن ناساً من أمتى يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية . فتنظر فى النصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر فى القدح فلا ترى شيئاً . وتنظر فى القديدة فلا ترى شيئاً ، وتمارى فى الفوق] وفى حديث آخر [يخرج من ضئضئ هذا ناس يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية] [2] .

هذا رأى الإباضية الصريح الواضح فى الخوارج ، وهو يتلاقى مع رأى الجمهور فى التسمية ، ويختلف فى التعليل ، فالأزارقة خوارج ، لانهم أخطأوا تأويل آيات الكتاب ، وأدى عملهم بهذا الخطأ إلى رد آيات ، وإبطال أحكام ، وليسوا خوارج لأنهم انفصلوا عن علىّ بن أبى طالب بعد التحكيم ، أو لأنهم ساروا على الأمويين . إن رأى الإباضية لا يقيم أى وزن للناحية الثورية فى إطلاق كلمـــة الخوارج ، ولكنهم يعللونها التعليل الدينى المعقول ، فكلمة الخوارج لا تطلق إلا على أولئك الذين خرجوا من الدين ، أما الخروج عن إمام ، والثورة عليه ،

(١) الدليل : الجزء الأول ص ٣٠ (٢) الدليل : ص ٥٢ الجزء الثانى

مهما كانت أسباب تلك الثورة ، وذلك الخروج ، لا يمكن أن يعتبر خروجاً من الدين ، ومروقا من الإسلام ، ولا يصح بحال أن يطبق على القائمين به هذا الحكم القاسى الرهيب ، ولو صح أن يعتبروا عصاة بغاة يجب تأديبهم حتى بالحرب لإرجاعهم إلى الأمة . والواقع التاريخى أكبر شاهد على هذا الرأى ، فإنه لم يعرف على الأقل فيما اطلعت عليه أن أحداً حكم بالخروج من الدين على أصحاب الثورات الذين ثاروا على أئمة شرعيين ؛ كالثوار على عثمان ، أو علىّ ، أو عبد الله بن وهب ، أو غيرهم . وقد وقف أنصار الخلافة فى كل تلك الأحوال للدفاع عن وحدة الأمة ، وقاتلوا البغاة قتالا عنيفاً لتأديبهم ، وإرجاعهم إلى حظيرة الإمامة ، ولكن دون الحكم عليهم بالمروق من الإسلام . فلماذا إذن يطلق هذا الاسم على المعتزلين لعلىّ دون سائر الثوار ؟

إن هذا الإسم فى نظر الإباضية لا علاقة له بالثورة ، أو بالخروج عن أى إمام ولا يطلق بحال على جميع الذين اعتزلوا علياً ، وإنما يطلق على الفرق التى تأولت آيات من كتاب الله فأخطأت التأويل ، وأفضى بها سوء الفهم والتصرف إلى إنكار أو رد بعض أحكام الإسلام القطعية ، ولو من الناحية العملية ، فخرجوا بذلك عن الإسلام ، وانطبق عليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم خوارج بالعقيدة والعمل ، لا بالثورة .

فهل بعد هذا الإيضاح والبيان ، يوجد ما يدعونى أن أقرر من جديد : أن الإباضية ليسوا من الخوارج ، وقد رأيتم رأيهم الصريح فى الخوارج ، وحكمهم عليهم ، وتعليلهم لذلك الحكم .

توافق في رأي

في هذا الفصل أحب أن أثبت الملاحظة اليسيرة الآتية ؛ وهي : أن اشتراك أفراد أو طوائف فى رأى معين لايعنى اشتراك أولئك الأفراد أو تلك الطوائف فى جميع الآراء ، واتفاقهم عليها ، ومن الخطأ فى فهم هذه الملاحظة اليسيرة تسربت الشبهة إلى أولئك الذين يزعمون أن الإباضية فرقة من الخوارج ، أومن غيرهم من الفرق الإسلامية الكثيرة ، والسبب فى ذلك أن الإباضية ينتقدون قبول التحكيم ، ويرون أن علياً مخطىء فى الموافقة عليه . وفى جعله حقه فى الخلافة موضوع نزاع بينه وبين معاوية . كما أنه وقد رضى بالتحكيم وعزله الحكمان — أخطأ فى قتاله لعبد الله بن وهب الراسبى ، وأصحاب النهر . وليس هذا الرأى مقصوراً على الإباضية ولا على الخوارج ، وانما كان رأى كثير من كبار الصحابة والتابعين [1] . وتوافق آراء الإباضية والخوارج فى هذه النقطة لا يجعل الإباضية خوارج ، كما لا يجعل الخوارج إباضية . ولكى أوضح هذه النقطة أسوق ما يأتى :

يشترك المعتزلة والأشاعرة فى أصل تنزيه البارى ، فهل يجعل هذا الاشتراك فى هذا الأصل كلا من المعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة ؟ . ويشترك بعض المعتزلة والشيعة فى نظرية حصر الخلافة فى البيت الهاشمى، فهل يجعل هذا الاشتراك كلا من المعتزلة والشيعة فرقة واحدة ؟ . ويشترك الإباضية مع الخوارج فى قضية الخلافة ، ومع المعتزلة فى الصفات ، ومع الأشاعرة فى القَدَر ، فهل يجعل هذا الاشتراك كلا من الإباضية والخوارج والمعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة ؟ . نعم إنها فرقة واحدة

---

(١) من الصحابة عبد الله بن عمر ؛ وسعد بن أبى وقاص . وهما ممن لم يشترك فى حرب صفين . ومن كبار التابعين . الحسن البصرى . وجابر بن زيد .

بالنظر إلى الأصل العام الذى يصدرون عنه ، وهو الإسلام ، ولكن هذا لا يمنع أن لكل فرقة من هذه الفرق ومن غيرها آراء تختص بها ، حسب فهمها للكتاب والسنة .

وقد تكثر هذه الفوارق بين فرقتين منها أو تقل حسب الأصول ؛ أصول الدين ، أو أصول الفقه التى ترى كل فرقة صحة اتخاذها أساساً للعقيدة أو للعمل .

أعتقد أن فى الملاحظات السابقة الجواب المقنع عن حيرة أولئك الذين يربطون العلائق بين الإباضية والخوارج ، كما أنه يكفى لإقناع أولئك الذين يريدون أن يحسبوا الإباضية فرقة متفرعة عن المعتزلة ، أو الأشاعرة ، أو غيرهم ، من المذاهب الإسلامية المتعددة .

ومن هذه الملاحظة أيضاً ، يتضح أن الإباضية قد يتفقون فى بعض وجهات النظر مع الخوارج ، أو مع المعتزلة ، أو مع الأشاعرة ، ولكنها ليست فرقة من هذه الفرق ، لأنها تختلف عن كل واحدة من هذه الفرق فى بعض أصول العقائد ، أو بعض أصول العمل ، إنها تختلف عن تلك الفرق جميعاً فى الآراء التى بعدت فيها تلك الفرق عن روح الإسلام .

والإباضية حسب أصولهم العملية ، وحسب تعاملهم مع بقية المسلمين من مخالفيهم ، وحسب السيرة الواقعية التى سجلها لهم التاريخ فى مختلف العصور ، يعتبرون أبعد الفرق الإسلامية جميعاً عن الخوارج ، وسوف يتضح ذلك فى الفصول الآتية من هذه الحلقات ، وفى سيرة الأبطال الذين سوف نستعرض تاريخهم المجيد ، وفى الفترات التى قامت للأباضية دول تحكم حسب القواعد التى جعلها هذا المذهب القويم .

فمن هم الإباضية ؟ وكيف نشأ هذا المذهب القويم ؟ وما هى الأصول أو النظريات التى يمتاز بها عن غيره من الفرق والمذاهب ؟

وهل حقاً يعتبر أقرب المذاهب إلى أهل السنة ؟ إن الجواب على هذه الأسئلة سوف يأتى فى فصول آتية من هذه الحلقة .

ميزان الخطأ والصواب
للفرق الإسلامية

إن كثيراً من الذين تحدثوا عن الإباضية فى القديم والحديث ، وسواء كان ذلك فى سياق البحث عن العقائد ، أو عن أحداث التاريخ، جرت على أقلامهم هذه العبارة : « الإباضية أقرب الفرق إلى أهل السُّنّة ». وأهل السنة هم فرقة من الفرق الإسلامية ؛ لها آراء وأصول بنت عليها قواعد مذهبها [1] . وهى ترجع فى هـذه الأصول إلى الأصل العام لجميع الفرق الإسلامية — الكتاب والسُّنّة والإجماع — ولا يمكن بطبيعة الحال أن تتخذ فرقة من الفرق مقياساً للخطأ والصواب ، فتحكم على صحة المذاهب الأخرى بمدى القرب أو البعد منها ، فان كل أصحاب فرقة من الفرق الإسلامية الكثيرة يعتقد أنه على صواب ، وأن الحق فيما ذهب إليه ، وأن دينه الذى يدين الله به أصح الأديان ، وأن أصوله التى استمدها ، هى أثبت الأصول ، وهو بهذا الاعتبار يرى أن الفرق التى تشاركه فى أكثر الأصول تكون أقرب إلى الصواب . ولكن هذه دعوى يدعيها أصحاب كل مذهب ، فليس لها فى نظر الحقيقة قيمة ... وإنما المقياس الحقيقى الذى نقيس به الخطأ والصواب، والميزان الصادق الذى نزن به العقائد و المذاهب والآراء والأعمال ، فنعرف مقدار صحتها ، ومدى قربها أو بعدها من الصواب ، فانما هو الميزان الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى] هذا هو المقياس الصحيح، الذى لا يتغير ، ولا يتهم ، ولا يخطىء ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .من أراد أن يعرف صحة عقيدة أو زيفها، وقربها من الحق أو بعدها ، فليعرضها على هذا المقياس ، وليحكم حينئذ بما يتبين له، وليدع جانباً تقارب الفرق والطوائف من بعضها وتباعدها ، ولينبذ أسماءها

(١) راجع الحديث عن أهل السنة والجماعة فى الفصل: « الإباضية فى قيادة الأمة » من هذه الحلقة

وألقابها ، فإن كل ذلك لا يغنى من الحق شيئاً ، وقد قرأت فيما قرأت مثل هذا الكلام للمؤرخ الليبى الأستاذ الطاهر الزاوى ، تناول فيه الحديث عن الإباضية ، وأورد هذه الجملة كأنما كان متأثراً برأى ابن حزم الأندلسى ، وإنه لمن الإنصاف للأستاذ الزاوى أن أقول : إنه تناول الحديث عن الإباضية فى هذا الفصل فقط بكثير من الرقة والدقة والاحتراس ، وأنه حاول جهده فى هذا الفصل فقط . أن يقف موقف المنصف المحايد الذى يدعو إلى لَم شعث الأمة ، ونبذها للخلاف وأسبابه ، مهما كانت مصادر ذلك الخلاف وبواعثه ، وأنا حين أذكر له هذا الموقف النبيل فى هذا الفصل آمل أن يتخذه مبدءاً يدعو إليه ، ويدين الله تعالى به . وأذكر أن فى كل من كتابيه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » و « جهاد الأبطال » لمزات مقصودة للإباضية ، وتحاملا بيناً عليهم ، وانحرافاً عن موقف المؤرخ المحايد النزيه[1] .

وسوف أعرض لبيان تلك المواقف فى غير هذا الفصل إن شاء الله .

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا طبعة دار المعارف بمصر : ١٠٦

افتراق الأمة

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :[1] [ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهن إلى النار ما خلا واحدة ناجية ، وكلهم يدعى تلك الواحدة] . روى الحديث بروايات متعددة مختلفة ، نص فى إحداها على أن الفرقة الناجية هى التى تكون على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، وفى رواية أخرى أن جميع الفرق ناجية ما عدا واحدة هالكة . ويظهر أن هذه الرواية ضعيفة .

إن الحديث ينص أن كل فرقة من هذه الفرق تدعى أنها هى الناجية ، وادعاء كل فرقة أنها هى الواحدة الناجية أمر طبيعى ، فإنه لا يصر على اتباع فرقة هالكة إلا مجنون ، وقد جاهد أصحاب الفرق جميعاً ليبرهنوا أنهم على الحق ، وأنهم يسلكون المسلك السوىّ ، الذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن غيرهم من الفرق حاد عن سبيل الله ، فى العمل أو فى الاعتقاد .

تناول الإمام هذا الحديث بالبحث ، وناقش دعوى كل الفرق وبراهينها التى تقدمها للتدليل على أنها الفرقة الناجية ، وبين أنها متساوية فى احتمال أن تكون على الحق عند الله وأن تكون على الباطل ، واستخلص من كل ذلك أن الفرقة الناجية لا يمكن أن تكون إحدى هذه الفرق ، وإنما هى الفرقة التى تكون على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جميع الفرق . إنهم

---

(١) جاء فى صحيح الربيع صفحة ١٢ باب . فى الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم . أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم . « ستفترق أمتى ... إلى آخر الحديث » .

أولئك المؤمنون الذين لا تغرهم أقوال الرجال ، ولا يتبعون مسالك الضلال ، ولا يستمسكون بغير هدى المعصوم وأصحابه ، الذين هم كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم .

وكلام الأستاذ الإمام قيم ، وفهمه لأسرار الشريعة الإسلامية فى هذا العصر واستمساكه بالحق ، ودفاعه عن دين الله ، يذكرنا بالعصر الأول ؛ حينما كان الحق ضالة المؤمن ، يدور معه حيثما دار ، ويقف معه أينما وقف .

الناجى والهالك من الفرق

ظاهر الحديث الذى سقناه فى افتراق الأمة على اختلاف رواياته ، يدل أن اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين هالكة جميعاً ، وأن فرقة واحدة فقط ناجية ، وإذا سلمنا بظاهر الحديث ، وقلنا إن المسلمين ينقسمون فعلا إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وأن هذا العدد محصور وموجود فعلا . فهل يحق لنا أن ننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى ؟ .

إن كل فرقة من هذه الفرق ، تحتوى على ملايين من المسلمين ، لا يعلم عددهم إلا الله ، وهذه الملايين تتفاوت فى معارفها وعلمها وعقلها ودينها تفاوتاً لا يضبطه مقياس ، ولا يأتى عليه حصر ، والطبقة المشتغلة ببحث أصول العقائد ، التى اختلفت فيها الأمة . كالقدر ، والعدالة الإلهية ، وصفات البارى ، من كل فرقة قلة ضئيلة جداً .

أما باقى المسلمين وإن كانوا ينسبون إلى مذهب من تلك المذاهب ، إلا أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذه المباحث العميقة ، التى تستدعى كفاءات خاصة ، وهم يقومون بواجباتهم الدينية حسب ما تلقوه ، مؤمنين بربهم ، مصدقين برسوله عليه السلام وما جاء به جملة وتفصيلا ، متقربين إلى الله بأعمالهم ، لا تؤهلهم ثقافتهم إلى مناقشة الآيات القرآنية ، ودراسة المحكم والمتشابه من الكتاب الكريم ، ولا يخولهم تفكيرهم المحدود أن يصلوا إلى تلك المباحث التى يجرى وراءها علماء الكلام . إن العامى من الأشاعرة أو الإباضية أو المعتزلة أو غيرهم ، لايخطر له مطلقاً أن يبحث مشكلة القَدَر ، فهومؤمن بطبعه أنه لايقع فى الكون إلا ما يريده الله ، والعامى من هذه المذاهب ومن غيرها ، لايفهم ماذا تعنى كلمات الذات ، والصفات ، وهل الصفات عين الذات إلى آخر ما هنالك من المباحث التى تحتاج إلى كثير من الذكاء والعلم .

فهل جميع هؤلاء المسلمين ، الذين ينتسبون إلى مختلف الفرق وهم يؤمنون بربهم ، ويعملون صالحاً ، يكونون من أصحاب النار ؟ لأن ظاهر هذا الحديث يقسم المسلمين إلى ثلاث وسبعين فرقة ، يلقى اثنتين وسبعين منها فى النار ؟

تحدث كثير من الفقهاء عن إيمان العجائز ، وقال بعضهم إن إيمانهن مثل لما يجب أن يكون عليه إيمان المسلم ، لأنه إيمان بالله لا يتزعزع ، ولا تنال منه الشبه مهما كثرت ، وهو فى سذاجته وبساطته قوى متين ، قيل إن الصحابة سألوا امرأة بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم : عن الله . فقالت : هو فى السماء ، فقال عليه السلام: [دعوها فإنها مؤمنة] . ولم يطلب منهم أن يلقوا عليها محاضرة طويلة فى استحالة التحيز والحلول عن البارىء عز وجل ، لأن عقلها غير مؤهل لتلقى مثل تلك الأبحاث ، فهل هؤلاء العجائز ، الهاربات بإيمانهن ، العارفات بربهن ، القائمات بواجباتهن ، المحافظات على دينهن ، المجتنبات لما حرم الله ، يصرن إلى النار لأنهن ينتمين إلى واحدة من هذه الفرق التى حكم عليها ظاهر الحديث بالعذاب الأليم .
وهل يحتم الإسلام على جميع أتباع الفرق ، من رجال ونساء ، أن يبحثوا أصول هذه الفرق وعقائدها . حتى يعرفوا الفرقة الناجية ويدخلوا فيها ، لكى تشملهم رحمة الله ورضوانه .

أعتقد أن هذا التكليف يعسر عن الطبيعة البشرية ، وأن سماحة الإسلام لا تقتضى التكليف بمثل هذا الأمر الشاق ، الذى لا يكون فى طوق المسلم العادى الذى يؤمن بالله ويراعى ربه فى عمله ، ويخشى الله ويتقيه فى محارمه .

وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [أفلح إن صدق][1] عن الرجل الذى أقسم أن لا يتطوع بشىء فوق الفرائض ، مثل عن سماحة الإسلام ويسره ، وتقبله لأعمال المؤمن دون تكليف بمباحث الفلسفة ، والفروق بين المذاهب .

---

(١) صحيح الربيع باب فى الإيمان والإسلام والشرائع . ص ١٦

لقد رضى الله الإسلام ديناً لأمة محمد ، وختم به رسالاته إلى الأرض ، وجعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، وأمة محمد هى أمة الإجابة ؛ والموفون بدين الله من هذه الأمة — مهما كانت الفرق التى ينتمون إليها — يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، وهم أجدر أن يتغمدهم الله بالرحمة ، ويشملهم بالمغفرة ، إلا مصراً على معصية ، أو متعمقاً فى فتنة .

وقد يكون من المناسب قبل أن أختم هذا الفصل أن أنقل مقتطفات من كلام أبى يعقوب حين تحدث عن افتراق الأمة ، وطريقة الجمع بين قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، وحديث الافتراق [ستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة . . . الخ . .] قال[1] : ونستظهر بما عاينا ورأينا من بلوغ هذه الأمة طرفى الأرض شرقا ومغربا ، وإذ أعاذهم الله تعالى من عبادة الأوثان ، واتخاذ غيره رباً . من غير أن تخل بشىء من طرق أهل الحق ، فالأصل السلامة .ما خلا صنفين منها : المبتدع فى دين الله عز وجل ، والمصر على معصية الله عز وجل ، المباين لله . فهذان لا سبيل لهما إلى الجنة .

ويقول فى غير هذا المكان[2] : « والبدع متفرقة ، فكل بدعة تشرع هدم قواعد الإسلام فهى العامة الطامة ، التى تبلغ الرجال والعيال ، وأما التى تقصر على الأخبار ، ولم تجاوز إلى هدم قواعد الإسلام ، كالاختلاف فى أسماء الشريعة من مؤمن ومسلم ، وكافر وفاسق ، ومشرك ومنافق ، وفى القرآن والصفات ، فأ كثر ما تضر هذه المعانى قائلها لا سامعها ، ما لم يعتقدها ديناً يدان الله تعالى به أو يقطع عذر مخالفيه من المسلمين ، أو هدم به قاعدة من قواعد الإسلام ، هنالك لا يعذر . ومن اقتصر على قواعد الإسلام من الشهادة ، والصلاة والزكاة والصوم والحج من استطاع إليـه سبيلا ، فعسى وعسى . وكذلك من كان بالثغور

---

(١) الدليل صفحة ٩

(٢) الدليل ١ : ١٢

من أرض العدو ولم يبلغه إمامه إلا قواعد الإسلام ، ولم يبلغه ما شجر بين الأمة ، ولم بفهمه . فإن فهم لم يقطع الشهادة عليه ، والقول على الرجال ، وأما العيال والنسوان والبله والولدان فهم بعيدون من هذا ، وكذلك أهل بلاد السودان الذين لم يبلغهم الإسلام إلا بعد الخمسمائة سنة من الهجرة ، ولم يعرفوا التفرقة بين المذاهب والأفراق ، فالرب أرأف وأرحم من أن يؤاخذ أحداً بذنب غيره . وقد قال الله تعالى : « *ولا تزر وازرة وزر أخرى* »[1]

---

(١) انظر تعليق أبي اسحق على كتاب الوضع ص ٢.

تكوّن المذاهب الإسلامية

يخيل لبعض الناس فى هذا العصر. أن تكوّن المذاهب الدينية شبيه بتكون الأحزاب السياسية ، يجتمع عدد من الناس تحت زعامة واحد منهم ، ثم يضعون لهم مبادىء معينة ، يتفقون عليها ، ويعلنونها للناس ، ثم يدعون إليها ، ويدافعون عنها بما لديهم من حرارة وقوة والواقع أن الفرق بين تكوّن المذاهب الدينية والأحزاب السياسية شاسع جداً .

تتكوّن الأحزاب السياسية نتيجة لظروف خاصة ، وفى أزمنة معينة ، تقتضى للطالبة ببعض الحقوق ، أو رسم الخطوط لسير الدولة ، فيتقدم جمهور من شعب أو أمة — بعد الاتفاق على المبادىء — إلى المطالبة بها .

أما المذاهب الدينية : فتتكون تكوّناً تدريجياً هادئاً ، فى أزمنة متطاولة ، حسب تولد الأفكار والآراء الجديدة فى الحياة ، وحسب وقوع الحوادث والأحداث ، وعرضها على أصول الشريعة الثابتة — القرآن والسُّنة والإجماع — لإعطائها حكما شرعياً . سواء كانت هذه الأحكام متعلقة بالعمل أو بالاعتقاد .

إننا نستطيع أن نؤرخ نشوء حزب ، تاريخاً زمنياً باليوم والشهر والسنة ، ولكننا لا نستطيع أن نؤرخ نشوء مذهب دينى بهذا التحديد ، لأن تكون المذاهب إنما ينشأ نتيجة لما تجد من أحداث ، ويحدث من آراء ، قد تطول بينها للسافات الزمنية ، ثم إن هذه الآراء والأحداث التى تعرض على أصل من الأصول المعتبرة فى الشرع لتعطى حكماً معيناً ، سواء تقاربت فى زمنها أو تباعدت ، تستغرق وقتاً قد يطول وقد يقصر ؛ ليدرسها المجتهد دراسة كاملة ، ويعرضها على الأدلة الشرعية ، ويتخذ فيها القرار الصحيح السليم ، وهذا بطبيعة الحال لا يحدث فى زمن واحد . لأن الوقائع التى تجد فى الحياة — سواء كانت متعلقة بالعقل أو التفكير أو العمل

لا تجمع بعضها إلى بعض ثم تعرض نفسها على عالم يعطيها الحكم المطلوب ، ثم إن هذه الأحكام التى يطلقها المجتهدون على حوادث أزمنتهم لم يكن الغرض منها إنشاء مذاهب أو تكوين فرق .

إن أولئك الأعلام الذين تركوا فى حياة الإسلام هذا الأثر العظيم ، لم يكن فى حسابهم أن أمماً سوف تقلدهم ، وتقدس آراءهم ، وتنسب إليهم مذاهب، بعد أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، بالمذهب الحق ، والصراط القويم .

إنهم كانوا معلمين من الدرجة الأولى ، فكانوا يحاولون بما أوتوا من جهد وقوة، أن يوجهوا قلوب الناس إلى الإيمان الحق بالله،والفهم الحق لأسرار الشريعة، والعمل الحق بما جاء به الإسلام . فكانوا يفسرون المبهم من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، لأولئك الذين تقصر أفهامهم عن معانيه ، وتعجز مداركهم عن البلوغ إلى مراميه ، ويشرحون مقاصد الدين لأولئك الذين تحول العجمة دون معرفتهم لأسرار العربية فى فهم الكتاب العزيز .

كان أولئك الأعلام معلمين ، وهبوا أنفسهم وجهودهم للعلم ، فكانوا يحرصون على إفادة الناس فى كل مجتمع : فى المسجد ، والشارع ، والسوق ، لا يكتمون ما آتاهم الله من فضله ، ولا يبخلون بما علموا عن طالب علم يجد فى طلبه ، ولا يبتغون به مكسباً فى الدنيا أو جاها عند الناس ، ولذلك كانوا حراصاً أشد الحرص أن يكون ما يعلمونه حقاً ثبت لهم بالدليل ، وصح عندهم بالبرهان ، فإن هداية الناس إلى دين الله ، وتعليمهم أسرار شريعته ، وتنوير قلوبهم وبصائرهم بنور الله ، أفضل القربات عندهم ، وأزكى الأعمال لديهم ، وأحب الواجبات إلى نفوسهم .

ووثق الناس بهم ، فكانوا يلتفون حولهم ، ويستمعون إلى أحاديثهم . ويسألونهم فيما يعرض لهم من مشاكل ، ويستفتونهم فيما ينوبهم من أحداث ، ويرجعون إليهم فيما يعتور قلوبهم وعقائدهم وأعمالهم ، من وساوس وشكوك ، فتكونت

حول كل واحد منهم هالة من المعجبين ، نشأ عنها شبه مايسمى اليوم — فى الفلسفة والأدب — بالمدارس .

التفَّ حول كل واحد من هؤلاء الأعلام ، مجموعة من الطلاب والمستمعين ، يعجبون بدروس أستاذهم وآرائه ، ويقتنعون بحجته وبرهانه ، ويعتقدون سلامة الأصول التى بنى عليها أحكامه ، فيتجهون اتجاهه فى الفكرة والعمل والمعتقد ، ويستعملون أدلته وبراهينه ، ويحاولون أن ينشروا عنه ذلك ، وأن يقنعوا به الناس ، وبهذه الطريقة ، تصبح لبعضهم مدرسة متميزة عن غيرها فى بعض الآراء أو المعتقدات. ولقد كان فى كل حاضرة من الحواضر الإسلامية فى ذلك الحين مدارس ذات شهرة ومكانة ، فقد كانت مكة ، والمدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر ، وعمان ، ودمشق وغيرها ، مراكز ثقافية ، تشع على العالم الإسلامى نور المعرفة والهدى . وقد كان العلماء من بقية الصحابة وكبار التابعين ، أمثال عبد الله بن العباس وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وجابر بن زيد ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن المسيب . وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ، يشغلون هذه المراكز ، ويتولون فيها نشر الثقافة الإسلامية .

ولما ذهبت هذه الطبقة الممتازة من الصحابة والتابعين ، خلفتهم طبقة أخرى من تابع التابعين ، وكان كل واحد منهم متأثراً بأحد أولئك الأعلام ، يترسم خطاه ، ويفتى بفتواه ، وجاءت بعد هذه الطبقة ، طبقة أخرى ، سلكت نفس هذا السبيل ، وقد كانت تجدُّ حوادث ، وتحدث آراء ، فى زمن كل طبقة من هذه الطبقات ، فيدرسها المجتهدون ، ويرجعونها إلى الأصول الثابتة عند كل واحد منهم. وبطول الزمن ، وانتشار الجهل بالدين ، وتكون طبقة من الفقهاء الجامدين ، الذين يقدسون آراء الأشخاص ، ويتحكمون فى أعمال الناس ، فيدعونهم إلى اتباع رأى معين . وتقليد إمام يرونه أعلم من غيره ، وأصوب حكماً ، تكونت المذاهب ،

وتعصب لها الأتباع بدون فهم ، وحاربوا غيرها فى عناد وإصرار وبلادة .

وقلدوا أولئك الأئمة الذين وثقوا بهم ، تقليد عصمة وتقديس ، وانتسبوا إليهم انتساب فخر واعتداد .

كان نشوء المدارس الدينية والثقافية فى صدر الإسلام، واختلاف وجهة النظر بين المجتهدين فى بعض الأصول أو الفروع ، دليلا على سماحة الإسلام ، وانفساحه للمدارك والعقول . وعلى عدم جموده على حرفية النصوص ، وعدم تحجيره على الأفهام أن تنطلق فى حرية التفكير والاستنباط ، لكن هذه الحرية الدينية التى فهم حدودها الأقدمون ، وهذه السماحة الإسلامية ، التى أتاحت لتلك العقول الجبارة أن تحلق فى أجواء البحث والاطلاع والاستطلاع ـ أصبحت فيما بعد سبباً من أسباب الشحناء والخلاف والتنابذ ، عندما سيطر الجهل على الناس ، وأعمى التعصب الجامد نور البصائر ، ولعبت أهواء الحكم والسياسة بالمفاهيم الحقيقية لتعاليم الدين القويم ، واستغل الطغاة والجبابرة من الحكام ، أطماع ضعاف النفوس والعقائد ، ممن تثق بهم الشعوب ، وتكل إليهم أمر دينها ، فانطمست الروح الحية ، وأصبحت الحقائق الدينية ، والأصول التى تبنى عليها العقائد والأعمال ، مظاهر جدلية للقول لا للعمل ، وميدانا يتسابق فيه طلاب الشهرة العلمية للظهور لا للحق ، وللناس لا لله ، وأصبح الدين بعد ذلك مرفقاً من مرافق الحياة ، يأنس إليه الناس ، بحكم الإرث والعادة والإلف ، لا بحكم الإيمان والعقيدة والعمل . وهم يقومون بواجباتهم كما يقوم المسيحيون بطقوس الكنيسة . ومظاهر تعوّدها الناس لا صلة لها بالقلب ، ولا علاقة لها بالإيمان . إنها واجبات تؤدى وحسب . يحس الإنسان راحة بعد الفراغ منها ، كالتى يحسها عندما ينجز أعمالاً يجب عليه إنجازها .

وهذه هى النكبة التى أصابت المسلمين ، وباعدت بينهم وبين دينهم ، وأضعفت أثر الروح التى يضفيها نور الحق على قلوب المؤمنين ، فأصبحوا لا يتقيدون فى أعمالهم بالحدود التى رسمها الحق ، ولا يقفون عندما يشتبه عليهم الحلال والحرام ، ولا يحاسبون أنفسهم على مسافة البعد بينهم وبين دين الله ، ولا يفزعون لضعف ما وقر فى صدورهم من إيمان .

* * *

المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية

هل تتكون المذاهب الدينية كما تتكون المذاهب الفلسفية ؟

قد أشرت فى أحاديثى السابقة إلى أن بعض السطحيين يظنون أن المذاهب الدينية تتكون كما تتكون الاحزاب السياسية ، وأريد هنا أن أنفى وجود الشبه بين المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية ، فالمذهب الفلسفى هو آراء بشرية ، فى قضايا الحياة ، أو مابعد الحياة ؛ فكرة بعد فكرة ، وقضية بعد قضية ، وهى قابلة فى أصولها للنقض ، وكثيراً ماتبنى تلك النظريات التى يضعها العقل البشرى ، على أسس من الوهم الباطل ، والنظر الخاطىء ، والمعرفة القاصرة ...

أما المذاهب الدينية ، وإن كونت حصيلة مبادئها تكوينا تدريجيا ، فإن هذه المبادىء راجعة إلى أصول واحدة ، غير قابلة للنقض أو الخطأ أو البطلان ، لأن واضعها هو عالم الغيب والشهادة . ومن هذه الأصول الثابتة المنزلة من السماء ، تستمد المذاهب اتجاهاتها ، وتقتبس أحكام دينها ، فى عقيدتها وعبادتها ومعاملاتها ، وفى نظم حياتها ، ونظم حكمها ، وموقفها من غيرها من الأديان .

وليس اختلاف المذاهب فى الحقيقة إلا اختلافاً فى الفهم والتفسير لمعانى تلك الأصول التى لا تتبدل ولا تتغير ، ولا يأتيها البطلان . ولا يوجد مذهب إسلامى يزعم أنه يستمد قواعده من غير تلك الأصول ، حتى تلك المذاهب المتطرفة فى الاعتماد على العقل .

والحقيقة التى يجب ألا يتطرق إليها الجدل ، أن الإسلام وهو الدين الذى اختاره خالق الإنسان ليكون النظام الذى يكفل سعادة البشرية فى الحياتين ، قد قرر كل الأسس التى تنبنى عليها الحياة السعيدة للإنسان ، فى كل مراحل الزمان ، وبما أن كتاباً لا يمكن أن يحوى التفاصيل الدقيقة للحوادث اليومية الجارية ، والنظريات

الفكرية والعقلية والعلمية المستجدة ، والنظم الاقتصادية والعمرانية المتعاقبة في سير الزمان لحياة الإنسان الطويلة ، فقد اكتفى الإسلام بوضع الأصول التي تستمد منها قواعد العقيدة والعمل ، ويسند إليها توجيه العقول والأفهام ، وبهذا عين نقطة الانطلاق ، وجهة التحليق للتفكير البشري ، وقد قصد الإسلام بهذا ، أن يفتح مجال البحث والتنقيب ، وأن يفسح مجال الاختيار والمقارنة ، وأن يعطى للإنسان أكبر قسط من الحرية في العقيدة والعمل والرأي ، والإسلام لا يكره شيئاً كما يكره العبودية لغير الله ، ولا يحارب شيئاً كما يحارب الجبروت والطغيان والظلم ، وتعالى الإنسان على أخيه الإنسان .

متى بدأت المذاهب الإسلامية

سألنى أحد المتعلمين ، هل بدأت المذاهب الإسلامية فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وعجبت فى بادىء الأمر كيف يجول هذا السؤال فى خاطر مؤمن ، ولكنى عندما فكرت فى الموضوع ظننت — وان كان الظن لا يغنى من الحق شيئاً — أن السائل ربما فهم هذا من بعض مناقشات الصحابة ، رضوان الله عليهم ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومراجعتهم له ، أو أنه تسرب إليه من مطالعته لبعض الكتب التى أثارت مثل هذه المناقشة . كما فعل الشهرستانى [1] . فنى مقدمته ما يشعر أن الشبه التى تعلقت بها الفرق الخاطئة ، قد أثيرت أصولها فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنا إذ أسوق هذا الحديث أقرر أن أبحاث العلامة الشهرستانى أعمق من هذا السؤال البسيط ، ومهما كان الأمر ، فإننى أستطيع أن أؤكد أن هذا السؤال بعيد جداً عن الواقع . فقد عاش المسلمون فى حياة الرسول علية الصلاة والسلام ، لا يحتاجون إلى استنباط الأحكام ، أو تسابق الأفهام ، أو تقرير القواعد للعقائد ، لأن كل ذلك ليس من شأنهم ، فقد كان الوحى ينزل بالأحكام فى كل حين ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يشرح المبهم بقوله وعمله ، ويجيب عن الأسئلة التى ترد إليه بما يشفى ويكفى . وقد يحدث أن يقف المسلمون موقف المتردد غير المقتنع فى قضية من القضايا أو موقف من المواقف ، وقد يراجعونه فى جواب من أجوبته التى لا يقتنعون بها بسهولة ، عندما تغرهم ظواهر معينة ، وقد يسلمون لأمر الرسول

---

(١) الملل والنحل : الطبعة الأولى تصحيح أحمد فهمى : المقدمة الرابعة : ص ١١

ولكن شيئا من الحيرة يبقى مترددا فى نفوسهم ، وفى أمثال هذه الظروف ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقنعهم بالعمل ، وبالنتائج المترتبة على حكمه وأجوبته ، ولعل هذه الظاهرة تتمثل فى أحداث الحديبية ، التى ظن بعض المسلمين أنهم قبلوا فيها الدنية فى دينهم ، واحتار المسلمون فيها حيرة لم يحتاروا مثلها من قبل ، وراجع فيها عمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ، وراجع أبا بكر حتى قال له الصِّديق رضى الله عنه : ويحك يا عمر استمسك بغرزه فإنه نبى يوحى اليه .

وأمثال هذه الحوادث لا يمكن أن يدعى أحد من الباحثين أنها نواة لتكون المذاهب ، أو أنها مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل ما يقال فيها أنها مناقشة لزيادة الاطمئنان ، كما سأل الخليل عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيى الموتى.

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتولى الخلافة أبو بكر ثم عمر ، كانت خلافتهما امتداداً لعصر النبوة ، لولا الوحشة التى أعقبتها وفاة رسول الله وانقطاع الوحى ، فى نفوس المسلمين واجتماعاتهم . أما فى غير هذا ، فقد استمرت كلمة المسلمين واحدة . إلا فيما يحدث عندما تناقش مسألة تختلف فيها الأنظار ، حتى يذكر أحد من الصحابة فيها علما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينقطع الجدل ، ويموت الصخب ، أو تتوافق الأكثرية على حكم فتستجيب الأقلية. ويقع الإجماع ، كما وقع فى البيعة لأبى بكر ، ويستمر المسلمون فى كفاحهم للطغيان ، ونشرهم لدين الله وجهادهم فى سبيله ، لا يجدون وقتاً للدعة ، ولا فراغاً للراحة ، وعندما تستجد حوادث ، أو تقع أمور تحتاج إلى حكم ، يتولى ذلك أولوا الأمر والعلم من المسلمين ، الذين كانوا مستعدين لهذا كل الاستعداد ، يبحثون عن الأصول فى كتاب الله ، فإن لم يجدوا ففى سنه رسول الله ، فإن لم يجدوا ففى إجماع المسلمين ، فإن لم يجدوا ، قاسوها على أشباهها ونظائرها ، مما وقع فيه حكم مستمد من الأصول السابقة .

وامتد الزمن ، وانتشر الإسلام فى أكثر بقاع الأرض ، ونقص عدد الصحابة

الذين عاشوا فى عصر النبوة ، وشهدوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وشاهدوا نزول الوحى، ودخل الإسلام ناس لايعرفون اللغة العربية، ولا يفهمون مقاصد الشريعة الإسلامية كما يفهمها الصحابة الأولون ،فكان لزاما أن يفسر لهم القرآن الكريم ، وأن يشرح لهم الحديث الشريف ، وأن توضح لهم مقاصد الشريعة الإسلامية ، ومن هذه الدروس ، ومن الأسئلة والمناقشات التى ترد على ألسنة المسلمين الجدد — هؤلاء المسلمين الذين لم يشهدوا نزول الوحى ، ولم يروا شخصية الرسول القوية ، التى تقنع بجلال الرسالة — بدأ تكون المذاهب .

نشأة المذهب الإباضى

إذا أردنا أن نؤرخ للمذاهب الإسلامية بنسبتها إلى المعلمين الأوائل ، الذين كان لهم التأثير الروحى والثقافى الأكبر على الناس ، فإن المذهب الإباضى ، يكون من أولها نشوءا، فقد كان معلمه الأول جابر بن زيد، من كبار التابعين، الذين نشروا الثقافة الإسلامية فى القرن الأول الهجرى، وقد عاش هذا الإمام العظيم، ما بين سنتى ٢١ — ٩٦ للهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

إن أغلب المشاكل التى اختلفت فيها الأمة نشأت فى الثلثين الأخيرين من القرن الأول . وقد حصر العلامة الشهرستانى هذه المشاكل فى أربعة أصول كبار كما يقول. هى[1]:

١ — الصفات والتوحيد فيها .

٢ — القَدَر والعدل .

٣ — الوعد والوعيد .

٤ — السمع والعقل والرسالة والأمانة .

ثم شرح المسائل التى تندرج تحت كل قسم من هذه الأقسام ، والذى يعنينا من ذلك فى هذا الفصل أن نشير إلى ما أثير منها فى القرن الأول ، واتخذ الإباضية فيه مذهبهم ، مستندين إلى البراهين القاطعة ، والآيات المحكمة من كتاب الله الكريم .

مما أثير فى ذلك القرن، مشاكل القَدَر والصفات ، والوعد والوعيد ، كما أن قضية الخلافة قد استنفدت جهداً كبيراً من رجال العلم والحكم فى ذلك العصر .

---

(١) الملل والنحل ج ١ المقدمة الثانية ص ٤

وقد درس الإباضية، وفى مقدمتهم الإمام الأكبر جابر بن زيد هذه المشاكل، كما درسها غيرهم من علماء الإسلام، وانتهوا فيها إلى الرأى والمذهب الذى اقتنعوا بصحته وصوابه، بما يوافق كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اتخذ الإباضية الأصل الأول لمذهبهم فيما يتعلق بالبارىء سبحانه وتعالى، تنزيهه تعالى عن مشابهة الخلق، استناداً إلى الآيات المحكمات من كتاب الله. وما ورد فى القرآن الكريم مما يوهم التشبيه، فإنه يجب الإيمان به أنه من عند الله، وتأول الآيات الموهمة للتشبيه بما يقتضيه المعنى من السياق كتأويل الاستواء بالاستيلاء، واليد بالقدرة، وما إلى ذلك.

وفى قضية القَدَر، رأى الإباضية منذ ذلك الحين، أن الإيمان لا يتم حتى يؤمن الإنسان بالقدر؛ خيره وشره، أنه من الله «والله خلقكم وما تعملون» «ألا له الخلق والأمر» «هل من خالق غير الله» «الله خالق كل شىء»، وللعبد حق الاكتساب والاختيار. وهكذا استقرت آراء الإباضية فى أكثر مسائل الخلاف على الأصول المستمدة من القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ولا يزال بقية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحياء وقد رجع الإمام الأكبر فى كثير من هذه المسائل إلى آراء الصحابة؛ كعبد الله بن العباس، وعائشة أم المؤمنين، كما وقع فى مسألة رؤية البارى ليلة الإسراء، حتى قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.[1]

ومن هذا الفصل يتبين للقارىء الكريم أن المذهب الإباضى اقتبس أصوله القويمة التى بنى عليها عقائده وأعماله فى خير القرون[2] حينما كانت بقية من

---

(١) جاء فى صحيح الربيع باب (١٠) فى ذكر الشرك والكفر ص ١٧ أبو عبيدة عن جابر بن زيد، عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية.»

(٢) إذا فسر القرن بالمعنى الزمنى المتعارف فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير القرون قرنى، ثم الذى يلونهم .. الحديث».

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشرون الثقافة بعلمهم ، ويوضحون هدى محمد بسلوكهم ، وينصرون دين الله بارشادهم وتوجيههم ونصيحتهم ، وأنه حينما كانت تحدث المشاكل وتنجم البدع ، فيفكر فيها العلماء الأعلام ، كان جابر رضى الله عنه يدرسها دراسة المؤمن المحقق ، فإذا لم يستبن له منفذ الصواب ، رجع إلى أساتذته الذين عرفوا من أسرار الإسلام وروحه ، ما لم يفهمه غيرهم ، فعرضها على ترجمان القرآن، أو على الحميراء التي قال فيها عليه السلام : [خذوا عنها نصف دينكم] أو أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أو غيرهم ممن أوتى الحكمة ، وأجازه الرسول عليه الصلاة والسلام للتعليم والإرشاد .

وبعد استقرار آراء الإباضية ، بأزمنة مختلفة ، تطول أو تقصر ، بدأت تتكون المذاهب الأخرى ، وتنتشر فى بعض جهات العالم الإسلامى ؛ فتكونت المعتزلة ، ثم تكونت غيرها من المذاهب التى يعتنقها كثرة المسلمين اليوم .

وبهذا الاعتبار ، يكون المذهب الإباضى أول المذاهب المعتدلة نشوءاً ، وأقربها إلى عصر النبوة وخير القرون ، وأفهمها لروح الإسلام ، وأسرار التشريع ، وهدى محمد وأصحابه .

ولهذه الأسباب نفسها ، نستعرض فى فصول آتية ، بعض الاتجاهات التى يختص بها أو يكاد يختص بها .

قضية الخلافة

عندما كان كبار العلماء من التابعين ، يعقدون مجالس العلم ، يفسرون كتاب الله ، ويروون للناس ماحفظوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قول وعمل ، ويفتون للناس فيما يعرض لهم من مشاكل — كانت قضية الخلافة ، قد أخذت حظها من النقاش ، واستقر فيها الناس على آراء معينة ، حسب أدلتهم التى يقتنعون بها ، وأصولهم التى يستندون إليها .

وكان جابر بن زيد الأزدى — أحد هؤلاء العلماء — اتخذ البصرة مقراً له ، ينشر فيها العلم ، ويوالى التدريس والتأليف ، ويهتم بشؤون المسلمين ، وكانت قضية الخلافة من القضايا التى مرت عليه ، ودرسها دراسة مستفيضة عميقة ، وانتهى فيها إلى رأى ثابت مبنى على روح العدالة فى الإسلام ، ومستمد من القرآن الكريم ، ومستند على سيرة السلف من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام .

كان يرى أن الخلافة أهم مرافق الدولة ، وأعظم مظهر للأمة ، وأقوى سلطة تشرف على تنفيذ أوامر الله ، وتطبيق أحكام الكتاب الكريم ، وهى بهذا الوصف لا يمكن أن تخضع لنظام وراثى ، ولا أن ترتبط بجنس أو قبيلة أو أسرة أو لون ، وإنما يجب أن يشترط فيها الكفاءة المطلقة فى الكفاءة الدينية ، والكفاءة الخلقية ، والكفاءة العملية ، والكفاءة العقلية ؛ فإذا تساوت هذه الكفاءات فى مجموعة من الناس ، أمكن أن تجعل الهاشمية أو القرشية أو العروبة من أسباب المفاضلة ، أو من وسائل الترجيح ، أما فى غير ذلك فليس لها حساب .

وقد عرف الناس هذا الرأى لجابر بن زيد ، كما عرفوه لكثير من العلماء المعاصرين له ، ولكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان طلابه

ينشرون ذلك عنه ، ويتحدثون به ، وفى هذه النقطة يلتقى رأى الإباضية برأى الخوارج ، ومن هنا زلق بعض المؤرخين ، فحسبوا أن الإباضية فرقة من الخوارج ، دون أن يجهدوا أنفسهم فى الاطلاع على بقية الأصول والآراء . وقد سبق أن قلت فى موضع من الفصول السابقة ، أن توافق فرقتين على رأى معين ، لا يجعلهما فرقة واحدة ، ولعل قضية الخلافة هى أهم قضية يلتقى فيها الإباضية والخوارج على رأى واحد ، وفيما عدا ذلك فالإباضية أبعد الناس عن الخوارج فى فهمهم للإسلام ، وعلمهم بأحكامه .

على أننى أعتقد أن الأمة الإسلامية — بعد التجارب الطويلة المريرة ، وبعد أن ابتعد بها التاريخ عن المؤثرات الخاصة ، التى سيرتها فى اتجاه معين — لا يسعها إلا أن ترى رأى الإباضية فى قضية الخلافة ، وأن علماء الإسلام لا يمكن أن يرجحوا غير هذا الرأى ، وإذا قدر للأمة الإسلامية أن تجتمع ، وأن ترجع إلى حكم الله ، وأن تلغى هذه الشرائع التى جاء بها الاستعمار ، لإبعاد هذه الأمة الإسلامية عن كتاب الله ، وقدر للخلافة الإسلامية أن تتولى شؤون المسلمين كما أمر الله ، لو قدر ذلك ؛ وكان للأمة أن تختار رئيس الدولة الذى تلقى بين يديه بمقدرات الأمة ، ما وسعها إلا أن ترجع إلى قواعد هذا المذهب ، لتختار الخليفة أو رئيس الدولة ، حسب الشروط السابقة التى أشرنا إلى بعضها ، ولما أقامت للهاشمية أو القرشية أو العروبة أى وزن ، اللهم إلا فى مقام الترجيح ، عندما تتساوى المواهب والكفاءات ، ولن تتساوى المواهب والكفاءات فى أمة تشتمل على الملايين من مختلف الأفهام والعقول والأخلاق .

وإنه ليسرنى حقاً أن أقتطف من الأستاذ محمد الغزالى ، السطور الرائعة الآتية ، لأختتم بها هذا الفصل : « ونحن نتساءل فيم هذا الجدل كله ؟ وما يضرنا

أو يفيدنا من هذا النسب ؟ وما ينقصنا أو يزيدنا من إفريقيا أو آسيا ؟ وما فضل عبد شمس على توت عنخ آمون ؟ أو تحتمس على عنتره ؟ ولماذا لا يقال فى إيجاز إن الزنجى المسلم خير من الهاشمى المنافق ، وأن قضية فلسطين من شأن الإسلام والمسلمين ، قبل أن تكون من شأن العرب والمستعمرين ، وأن صاحب الرسالة العظمى قال : « لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام من الفخر بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، ليكونن أهون على الله من الجعلان الذى يدهده الخرء بأنفه ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية — كبر — الجاهلية ، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب » .

موقف الأباضية
من أسواق الجدل

لعل من الصفات التى يمتاز بها الإباضية ، أنهم لا يميلون إلى كثرة الجدل ، ولا يرتاحون للمناقشة الفارغة ، والخصام المتعنت ، ولا يشغلون أوقاتهم بترديد الأقاويل ، وإطالة الأحاديث ، وذلك أن قواعد الدين جعلتهم يؤمنون بقيمة الفكرة لا الكلمة ، ويجدون قوة الدليل فى العمل لا فى القول ، ويعرفون أن إقامة الحجة بالسلوك أقوى منها بالدعوى ، ولذلك فأنت عندما ترجع إلى أسواق الجدل ، ومؤتمرات الكلام فى التاريخ الإسلامى الطويل ، فإنك تجد الإباضية أقل الفرق كلاما وأكثرها عملا ، وأخفها حديثاً ، وأرجحها إيماناً ، وأبعدها عن الدعوى وأدناها إلى الاهتداء .

وعندما أنتقلت المناقشات من طور البحث عن الحق ، والتماس الصواب ، وتصحيح العقيدة ، إلى طور آخر : هو عقد مجالس للخصام ، ومجامع للمناظرة واللعب بالكلام ، والجدل للحصول على لذة الفوز فى المعارك البيانية الحامية ، التى يقصد منها الظهور أكثرها مما يقصد منها البحث عن الحقيقة ، وظهر فى أفق الحياة ، حياة المسلمين ، أولئك النفر الذين يريدون أن يملأوا الدنيا بالضجيج ، ويشغلوا أذهان الناس بالقول . .

عندما انتقلت حياة المسلمين إلى هذا الوضع ، رجع الإباضية — وقد آمنوا بصحة مذهبهم ، وسلامة عقيدتهم ، بعدأن محصوها وبنوها على الأصول من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم تدخلها بدعة أو خرافه ، وعرضوا مختلف المشاكل على الميزان الذى وضعه المشرع الأكبر ، قبل أن يشتد اللجاج بالناس — رجع الإباضية إلى أنفسهم يحاسبونها على العمل بما علمت ، ويسيرون بها على نور من دين الله ، ينشرون ما ثبت عندهم بالدليل الذى لايحتمل التأويل ،

فى هدوء واتزان ، لا يشغلون أنفسهم بالصخب الداوى الذى ليس له نتائج ، ولا يلقون بأنفسهم فى الكفاح الكلامى الذى يهدف إلى مظاهر العظمة والنفوذ فى الدنيا ، ولكنهم مع كل ذلك كانوا أحرص الناس على إقامة الحق ، وإثبات أدلته ، وعندما يقتضى الموقف الرد على أباطيل المدعين ، وترهات المبتدعين ، وشبهات المفترين ، فإن علماء الإباضية يكونون أسرع الناس إلى تحطيم الباطل ، الذى يريد أن يستعلن ، أو الشبهة التى يبتغى صاحبها أن يكسوها ثوب الحجة ، وما أن يحطموا الباطل ، ويفحموا أصحابه ، حتى يعودوا إلى العمل فى سبيلهم الذى مهدوه ،وسلوكهم الذى اختاروه ؛ عمل صالح لله والأمة ، واستمساك متين بالكتاب والسنة ، ودؤوب لا ينقطع لإعلاء كلمة الله . يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ، ويتبعون سبيل الله الذى حدده الإسلام، وأوضحه هدى محمد عليه السلام . كفاح لا تصاحبه ضجة . ونصر لا تسبقه دعوى ، ولا يعقبه تبجح أو افتخار أو مباهاة . وجدل حىٌّ هادىء لا يصخب ولا يلعن ، ولكنه يقطع طريق التحدى ، عن الأهواء والبدع ، ويلزم الباطل أن يتوارى فلا يستعلن ، ويتضاءل فلا يبين .

كان واصل بن عطاء إمام المعتزلة ، يتوق إلى مجادلة أبى عبيدة مسلم ، ويعد العدة لذلك ، حتى سنحت له الفرصة ذات يوم ، وجمعهما مكان ، فقال واصل لأبى عبيدة : أنت الذى تقول : إن الله يعذب على القدر؟ فقال أبو عبيدة : لا ، ولكنى أقول يعذب على المقدور . ثم قال أبو عبيدة لواصل : أنت الذى تقول : إن الله تعالى يعصى باستكراه ؟ فعجز واصل وسكت عن الجواب . فقيل له بعد ذلك ؛ سألته فتخلص ، وسألك فسكت ، فقال واصل : بنيت له بنياناً منذ ثلاثين سنة ، فهدمه وهو واقف .[1]

---

(١) سير العامة والمبتدئين ص ٦ هامشه رقم ١

كان المعتزلة أكثر الفرق الإسلامية حباً للجدل ، ولذلك فهم لا ينفكون عن تحدى غيرهم من الفرق الإسلامية ، وتحدى جماعة منهم أهل المذهب، فعقدوا مجلساً للمناظرة ، وتقدم المعتزلى الذى مهر فى إعداد الأسئلة والأجوبة ، فنادى: ياعبد الله ، فلم يجبه أحد ، لأن المجلس يشتمل على عدد من العبادلة ، فقال : عبد الله ابن اللمطى الإباضى أريد ، فأجابه ، فقال المعتزلى : ياعبد الله:هل تستطيع أن تنتقل من مكان لست فيه إلى مكان أنت فيه — فقال عبد الله : لا ، فقال المعتزلى : هل تستطيع أن تنتقل من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه فقال : إذا شئت ، فقال : خرجت منها ياابن اللمطى[١] . وهكذا انتقض مابناه المعتزلى وسهر فى إعداده والتفكير له ليالى سودا .

وقع فى نفس الحجاج شيء من القدر نشكا ، ذلك إلى كاتبه يزيد بن مسلم ، فبعث يزيد يسأل جابراً — وكان به معجباً ، وفيه واثقاً ، فأجابه : قل للأمير يكثر من ترديد خطبته ، فإن فيها الجواب عما يسأل : وردد الحجاج خطبته ، وأكثر فيها التفكير ، فانتبه إلى أن خطبته تشتمل على قوله تعالى:

« من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » .

وفى الآية الكريمة الجواب على حيرة الحجاج ، فقال ليزيد : ويحك يايزيد ، ما أعلم صاحبك[٢] .

وأراد جماعة من الخوارج — وهم يستحلون أموال المسلمين وسبى نسائهم وأطفالهم — أن يجادلوا جابراً ، فقال لهم :

أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين ؟ فقالوا : نعم ، فقال : وحرم البراءة منهم بدين ؟ فقالوا : نعم ! فقال : أو ليس قد أحل دماء أهل الحرب بدين بعد

---

(١) السير ص ٢٢٢ وقد ذكر القصة ابن الصغير والبارونى فى الأزهار .

(٢) راجع السير للشماخى ، وشرح عقيدة التوحيد لقطب الأئمة .

تحريمها بدين ؟ فقالوا : بلى ! وحرم الله ولايتهم بدين بعد الأمر بها بدين ؟ قالوا : نعم ! فقال : هل أحل ما بعد هذا بدين ؟[١]

فسكتوا ، وهكذا استطاع أن يسير بهم خطوة خطوة حتى يضع أيديهم على الحق ، ويعرفهم أن الأحكام التى تنطبق على المسلمين ليست كالأحكام التى تنطبق على المشركين ، وأن الموحد إذا ارتكب مايحل به دمه لا يكون ذلك كافياً لاستحلال ماله ، وسبى نسائه وأطفاله .

إن دم الموحد قد يحل لتنفيذ حكم الله فى العقوبات على بعض الجرائم الاجتماعية أو السياسية ، كالقتل والزنا ، وقطع الطريق والبغى ، وهذه الأحكام إنما يقصد منها أولا عقوبة المجرم على ما ارتكب ، وثانياً زجر الناس عن ارتكاب مثل هذه الآثام ، والعقوبة فى كل أحكام الشريعة ، إنما قدرت بالضرورة : وبنيت على الأسباب الداعية إليها ، وحددت طريقة تنفيذها دون إسراف أو مبالغة .

ولذلك فلا يحل أن تتعدى الحدود التى رسمت لها ، وهذا المعنى دق على أفهام بعض الناس ، فسألوا الإمام علياً لما ناقشوه عن وقعة الجمل فقالوا : حللت لنا دماء قوم وحرمت علينا أموالهم . وهو نفس السؤال الذى وجهه أحد جند أبى الخطاب عبد الأعلى عندما احتل القيروان ، فأنكر عليه أبو الخطاب هذا السؤال وزجره عنه ، وقال له : لو فعلنا ذلك لكان حقيقاً على الله أن يكبنا معهم فى النار[٢] .

---

(١) راجع المصدرين السابقين :

(٢) جاء فى السير ص : ١٢٩ مايلى :

« وكان رحمه الله أحسن السيرة فيهم حين هزمهم ؛ لم يجهز على جريح ، ولم يتبع مدبراً . فقال له خالد الدواق : نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا . قال أبو الخطاب : حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » ثم ارتحل » . اهـ بنصه

الاجتهاد

ذهب كثير من الفرق الإسلامية إلى إغلاق باب الاجتهاد بعد عصور معينة، حاسبين أنه لن يأتي ناس في مستوى المجتهدين السابقين، وأنه لم يبق في الدين ميدان ينفسح للاجتهاد.

وحينما حجر هؤلاء الجامدون على عقول المسلمين وأفهامهم أن تنطلق، وتحلق في الميادين الفساح التي فتحها الكتاب الكريم بدعوة المؤمنين إلى الانطلاق والتحرر والتفكير، حين فعلوا ذلك وأوقفوا تيار التفكير، جمدوا الإسلام من جهة أخرى على نظرات وبيئات وأزمنة خاصة.

وقد عرف الإباضية منذ أول وهلة، أن هذه الفكرة الجامدة لا تتمشى مع روح الإسلام الذي يصلح لكل زمان ومكان، فإن الإسلام بعد أن رسم الحدود التي لا ينبغي تخطيها، أراد من المسلمين أن ينطلقوا بمواهبهم وأفكارهم، وعلومهم وأفهامهم في ميادين الحياة، يرودون المجاهيل، ويفتتحون المغالق، وينيرون السبيل أمام أفواج البشرية في جميع الأعصار والأمصار، فلم يحجر على أواخر الأمة ما أباحه لأوائلها، والمسلمون في جميع العصور لا يتفاضلون إلا بالتقوى والإيمان وبالعمل الصالح، والكفاح المتواصل في سبيل الله، باستثناء شرف الصحبة لأولئك النفر الذين اختارهم الله أن يكونوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، والدفعة الأولى التي تحمل مشعل الهداية لخير البشرية الضالة.

إن حاجة المسلمين إلى المجتهدين في العصور المتأخرة، وإلى أبحاثهم في هذه المشاكل الكثيرة، التي تعرضها الحضارات المختلفة على الأمة، أشد من حاجتها إليهم في الأزمنة السابقة، ووصول العاملين من هذه الأمة إلى الاجتهاد أيسر في هذه

العصور لسهولة المواصلات ، وإمكان اتصال العلماء ، وحصولهم على جميع المصادر التى تساعدهم على أبحاثهم ومناقشتهم .

ولما كان الإباضية يعتقدون أن ما فتحه الله لأوائل هذه الأمة لا ينغلق عن آخرها ، وأن باب الاجتهاد الذى تركه [محمد صلى الله عليه وسلم] مفتوحاً على مصراعيه ، لا يمكن أن يغلقه فقيه مغلق الفهم ، ولذلك فقد ناقشوا قضية الاجتهاد والمستوى العلمى الذى يؤهل صاحبه للقيام بهذا العبء ، وهل يصح الاختصاص فيه لمن استكمل شرائط الاجتهاد فى قسم دون قسم ؟ لئلا تتوقف الملكات والمواهب فى ميدان من ميادين العلم والحياة ، من أجل ميدان آخر تعمل فيه ملكات وعقول أخرى .

ولعل فيما كتبه العلامة السالمى فى هذا الموضوع كثيراً من الايضاح والتحقيق ، فاستمع إليه يقول بعد أن أوضح الشروط التى يجب أن تتوفر فى المجتهد ، كالعلم باللغة ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، ومصادر الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع :
« أما إذا اختل منها بعض الشروط ، وكان عالماً بشىء دون شىء ، كما لو كان عالماً بأدلة النكاح ، دون غيرها . أو بأدلة البيوع دون غيره ، أو نحو ذلك . وكان متقناً بما علم منها ، اتقاناً تاماً . فهل يجوز له أن يجتهد فى استنباط ما علم من الأحكام ؟ أم لا يجوز له حتى يكون عالماً بجميع أحكام الكتاب والسنة ؟

ذهب الإمام الكدمى رضى الله عنه إلى جواز ذلك ، ونسب هذا القول إلى أكثر الأصوليين ، وقيل لا يجوز الاجتهاد فى بعض المسائل دون بعض ، وإن عرف من ذلك البعض الأدلة التى تتعلق بها أحكامه ، وهذه المسألة معروفة عندهم ، بتجزىء الاجتهاد ، والصحيح ما عليه الإمام من جواز ذلك . لأنه لو اشترطنا

كمال الاجتهاد فى كل فن ، بحيث لا يجهل المجتهد شيئاً من مأخذ كل مسألة ، للزم أن لا يجهل المجتهد شيئاً من المسائل الاجتهادية ، لـكمال علمه بمأخذ كل مسألة ، وإلا كان قاصراً ، وقد سئل مالك بن أنس عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع . وقال فى البقية لا أدرى ، فلولا أنه يصح الاجتهاد فى مسألة دون أخرى ، لما جاز له أن يجيب عن البعض ، وكذلك نقل عن بعض الصحابة : التوقف فى مسائل الأحكام ، معاذ وابن عمر وغيرهما ، وكذلك عن التابعين ، وتابع التابعين ،حتى حتى صار ذلك شعاراً فى علماء الآخرة ، فلو لم يكن الاجتهاد فى بعض المسائل دون بعض جائزاً ما ثبت هذا التوقف عنهم .(١)

هكذا بكثير من السماحة والوضـوح والتحرر ، يناقشون المشاكل مستندين إلى عمل الصحابة والتابعين ، وسيرة السلف الصالحين ، لا يحجرون ما وسعه العلم ، ولا يحرمون ما أحله الدين ، ولا يتركون مشاكل العصور المتتابعة تتراكم مزدحمة على أبواب من الاجتهاد أغلقتها أفهام بليدة ، لتعود هذه المشاكل القهقرى لتتطلب الأحكام من علماء قد بليت عظامهم ، وفنيت أنظارهم ، واستوفوا آجالهم منذ قرون مديدة . . .

وإنه لما يبعث على انشراح قلوب المؤمنين أن أدرك أكثر علماء المسلمين فى هذا العصر ، صواب هذه النظرة عند الإباضية ، فانتفضوا يقطعون هذه السلاسل التى كبلت فرقا من المسلمين عصوراً طويلة ، ويكسرون هذه الأبواب التى أغلقت دون الانطلاق فى سماء التفـكير والاجتهاد ، ويقتحمون هذا الميدان المحجور الذى خصصته النظرة الجامدة متحفاً للموتى ، ويبيحون للمسلمين ما أباحه الله لهم ، بل وندبهم إلى السباق فيه فقال :

---

(١) شرح طلعة الشمس ج : ٢ : ٢٧٨ .

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »

ومن المحقق أنه ليس مطلوباً من هذه الطائفة التى تدعى لحمل رسالة الله وتفقيه المسلمين فى الدين ، وإنذارهم عند مايستكملون عدة الدعاة من الأيمان والعلم والعمل. ليس مطلوبا من هذه الطائفة أن يكونوا حملة لمسائل جافة ، وقضايا مسلمة ، يختزنونها فى ذواكر جامدة ، كأنها طبعة مكررة ، لكتب محفوظة . فإن أمثال هؤلاء لا يصح أن يوصفوا بالفقه ، ولا يستطيعون الإنذار ، ولا يقوون على حمل رسالة الله .

وقد يكون الأستاذ الإمام من أوائل من حطم الجمود ، وحمل لواء الثورة على الرجعية الدينية التى تحكمت فى المسلمين ، عدة قرون ، وتوقفت بهم دون تقدم ، تنظر فى حيرة وارتباك إلى موكب الحياة يتغلغل بالبشرية فى أطواء الزمن ، ودعا إلى التحرر من هذا القيد الذى كبل به جهلة الفقهاء انطلاقة الفهم الإسلامى العميق لأحداث الزمن وتطورات الحياة .

كان الإباضية منذ العصر الأول ممن وعى هذه الحقيقة ، وفهم روح الإسلام التى دعا إليها فى الكتاب الكريم ، وهدى رسوله القويم فى توجيهه لأصحابه رضوان الله عليهم ، كما فعل عليه السلام مع معاذ بن جبل ، حتى حمد الله على توفيق رسول رسول الله . فلم يسمحوا لهذا القيد أن يغل أيديهم ، ولهذا الحجْر أن يقف دون انطلاقتهم ، ولهذا الجمود أن يسيطر على عقولهم وأفهامهم وعلومهم ، وذلك لأنهم يعتبرون مدارك الناس ومواهبهم متساوية ، وكما أمكن أن تجىء القرون الأولى بالعمالقة الأعلام ، يمكن أن تجىء القرون المتوسطة والمتأخرة بالعمالقة والأعلام .

ما دامت المصادر التي يستقي منها الأولون هي نفس المصادر التي يستقي منها المتأخرون ، مع ما تيسر من وسائل الاتصال والاطلاع والمعرفة .

وهذه قضية ثانية من القضايا التي يكاد ينفرد بها الإباضية ، والتي تتمشى مع روح الإسلام ومع حقيقة الحياة ، ومع طبيعة الوجود ، وقد غفل عنها كثير من أصحاب المذاهب الأخرى ، ولم يفهموا حقيقتها إلا في هذا العصر الذي بدأ فيه المسلمون ينفضون عنهم غبار الغفلة والجمود والرجعية ، وينطلقون فيما مهدته سماحة الإسلام ، ودعا إليه سيد الأنام ، عليه الصلاة والسلام .

الإسلام عقيدة وقول وعمل

من المسائل التي يكاد ينفرد بها الإباضية : هذه القاعدة الهامة التي لا يمكن أن تكون للإسلام ثمرة بدونها ، هذه القاعدة هي اشتراطهم العمل لتمام الإسلام .

« إن الدين عند الله الإسلام »

والإسلام لا يتم إلا بقول وعمل ، فالقول : النطق بكلمة الشهادة ، والعمل الإتيان بجميع الفرائض ، واجتناب جميع المحرمات ، والوقوف عند جميع الشبهات .

النطق بالشهادة يدخل الشخص في الخطط الجغرافي للمسلمين ، فيحرم دمه ، وماله ، وتحفظ كرامة نسائه وأطفاله ، لقوله عليه السلام : [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها] ، قيل وما حقها يارسول الله ؟ قال : [كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل النفس .][1] أما أن يكتفي المرء بالنطق بهذه الكلمة ، ويهمل العمل بما فرضه الله ، فهذا إيمان غير تام ، وعمل غير صالح ، إن طبيعة الإسلام تقتضي من الشخص أن يؤمن بالله ورسالته ، وأن يصرح بهذا الإيمان ، وأن يندفع للعمل بما جاءت به هذه الرسالة ، التي آمن بها .

ولو ألقيت نظرة إلى العالم الإسلامي اليوم ، الذي يموج بملايين من البشر ، يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويفخرون بأنهم مسلمون ، اختارهم الله لأن يكونوا في الأمة التي أراد الله أن يختم بها الأمم المؤمنة ، وينسخ

---

(١) جاء في صحيح الربيع باب : جامع الغزو في سبيل الله الجزء الثاني ص ١٩ بلفظ . (أبوعبيدة عن جابر بن يزيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها »

بشريعتها شرائع السماء . إنك لو ألقيت نظرة إلى هؤلاء المسلمين وإلى أعمالهم ، لأذهلتك النتيجة ، وساءتك المقارنة .

إن الله حين أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بشريعة الإسلام ، أراد أن يكون المسلم كله لله ، وأن لا يكون لله فى المؤمن شريك ، فإن الله أغنى الشركاء ، فإما أن يتوجه المؤمن إلى الله بقلبه ولسانه وجوارحه وإلا فإن الله غنى عنه .

وما جدوى أن يلوك اللسان كلمة التوحيد ، ويمتلىء القلب بحب غير الله ، وتتسابق الجوارح إلى كل ما نهى الله عنه ، تاركة لما فرضه الله عليها .

ما وزن هذا المسلم الذى لا يقرب الصلاة ؟ أو لا يعترف بالزكاة ؟ أو لا يحج إلا للمباهاه ؟ .

وما وزن هذا المسلم الذى يدخل الحانة فيشرب حتى يفقد عقله ؟ والمقمرة حتى يفقد ماله ؟ والماخور حتى ينهك صحته ويهتك ستره ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى ينطلق فى الشوارع تحمل أصابعه المسبحة ليراه الناس ، وتتمتم شفتاه بلا إله إلا الله ، وتجول عيناه بين المفاتن التى حرم الله ، حتى يجد من أعين الناس غرة ، فيرتكب الفاحشة ، ويبتز المال الحرام ، ثم يخرج فيضفى على المدخل الفاسق ثوباً من الوقار الخارجى ليظن الناس أنه مؤمن ؟

وما وزن هذا المسلم ؟ الذى يحتج بقول الفيلسوف على قول الله ، ويرد بنظرية فرويد على سنة رسول الله ، ويعتز بفلسفة ماركس دون فلسفة الإسلام ، ويعطل أحكام الكتاب بالدساتير التى وضعها جان بول سارتر ،[1] أو جون ديوى ، أو كارل ماركس ؟

(١) ليس المقصود هذه الأسماء التى عيناها فقط، ولكنهم مثل لعشرات من الشخصيات التى توصف بالفلسفة أو الحكمة ، وتؤخذ أقوالها وآراؤها بدلا من أحكام الله ، فاذا قلت : قال الله ، أو قال رسوله أجبت : قال فرويد ، أو داروين ، أو ماركس . أو سارتر ، أو غير هؤلاء ممن تمتلىء قلوب المفتونين اعجاباً بهم .

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى ينفق الأموال فى كل سبيل إلا سبيل الله والخير ، ويشترك فى كل مشروع إلا مشروع المعروف ، وينهى عن كل مجلس إلا مجلس المنكر؟!!.

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى يستغفل الناس بالدين ، ويختلهم عن أموالهم باظهار التقوى ، فيسرقها باستحقاق الصدقة ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى يستعبد الناس وأموالهم بحرية التملك ، ويسخرهم تسخير العبيد بدعوى ولاية الأمر ، ويحكم عليهم بالتجهيل ، والتفقير والإذلال ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن ذلك المسلم الذى سمع بهذا العصر فتعصر ، وقيل له عن الاشتراكية فتشرك ، ثم دعى إلى الشيوعية فتشيع ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وليست هذه الصور مقصورة على الأفراد ، وإنما هى تنطبق على الدول . إنها تنطبق كل الانطباق على هذه الطوائف الحائرة من بلاد الإسلام ، التى تدعى كل واحدة منها أنها دولة ، تستعصم بالعروبة وتترك الإسلام ، وتعتز بالعنصر ، وتتناسى الدين . وتقلد أعداء الله وأعداءها فى طرق الحكم ، وتنبذ طرق الحكم التى وضعها الله لها ، ثم بعد كل ذلك تناصب بعضها العداء ، وتستعين على إخوانها فى الله بأعداء الله ، تستمد منهم الرأى والخبرة ، والسلاح والذخيرة والحيلة والكيد .

ما وزن هذه الدول عند الله ؟

إنك تستطيع أن تجد ملايين من الصور لملايين من البشر ، تنطلق ألسنتهم بكلمة التوحيد، ولكنهم فى غير ذلك ليسوا مسلمين ، فهل يتم إيمان كل أولئك ، ويحسبون على الإسلام ؟ لو كان هذا الإيمان كاملا كما أراده الله ، وكان إيمان هؤلاء الغثاء كإيمان أولئك الصناديد الذين يرون أن العمل هو شريطة كمال الإيمان. لكان العالم كله يسير اليوم على شريعة الله . فإن عشرة آلاف من المسلمين — عندما كان الإسلام إيمانا وقولا وعملا — استطاعوا أن يهدوا الملايين إلى دين الله بسلوكهم، قبل أن يهدوهم بأقوالهم وأسيافهم ، واستطاع أولئك الآلاف القليلة ، أن يثبتوا حكم الله قويا مزدهراً فى بلاد الله ، وإن كان أهلها على غير الإسلام ، لأن أولئك القلة كانوا مسلمين حقا بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم . إننى أزعم — وقد أكون مخطئا فى هذا الزعم — أنه لم يضر الإسلام ، ويهونه فى نظر أتباعه ، ويجرىء المسلمين على ترك فرائضه ، وانتهاك حرماته ، وعدم التقيد بشرعه — شىء مثل ما أضر به هذا القول الذى يضفى الإسلام الكامل على رجل ليس له من الإسلام إلا قولة لا إله إلا الله ، وتشدق بعض المتفقهين ، الذين يستغلون ما حفظوا دون فهم ، ويجتهدون لإرضاء العامة والجهلة من الناس بتهوين أسباب المعصية لهم، ويدجلون باسم بعض المذاهب ، قائلين :إن جهنم لم تخلق لمن يوحد الله، ولو لم يعمل، وأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنى وإن سرق ، غير فاهم معنى الجملة الأخيره . فى أمثال هذه الأساليب التى يقتطعونها عن معانيها ، ويخدعون بها الناس عن أنفسهم وعن دينهم وعن ربهم ، يضفون عليهم لقب الإسلام ، ويسلبونهم العمل الصالح ، الذى اشترطه الكتاب الكريم لمن آمن بالله ، فلم يرد فيه إيمان غير مقرون بالعمل الصالح والإحسان .

هذه قضية ثالثة من القضايا التى يكاد ينفرد بها الإباضية منذ أول الإسلام ، وساروا فيها على المنهج الذى كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم ، وسار عليه أصحابه رضوان الله عليهم فلم يفرقوا بين القول والعمل ، ولم يجزئوا دين الله ، ولم يطمعوا

العصاة المصرّين غير التائبين ، سواء كانت معصيتهم بالفعل أو الترك ، فى رحمة الله .

والآن وقد انتفض المسلمون من هجمتهم الطويلة ، ورجعوا إلى كتاب ربهم وهدى نبيهم وسيرة سلفهم ، يستلهمونه التوجيه ، ويستوحونه الإرشاد ، ويلتمسون منه هداية الطريق ، عرفوا أن العمل ، هو الشرط الأساسى فى صحة العقيدة ، ولذلك فقد انطلقت الأقلام المباركة ، تدعو إلى الاستمساك بالعروة الوثقى من كتاب الله ، والتحلى بالخلق الأقوم الذى تحلى به محمد صلى الله عليه وسلم ، والاندفاع إلى ميدان الجهاد الدائم جهاد النفس ، فإن من لم يستطع أن يقهر الشيطان فى نفسه لا يستطيع أن يقهر العدو فى أرضه ، وما دام المسلمون منحرفين عن صراط الله السوى فإنهم لن يتأيدوا بنصر الله . فإذا فهم المسلمون الإسلام حق الفهم ، ورجعوا إلى العمل به أفراداً وأمما ، شعوباً ودولاً ، وأسلموا أرواحهم وألسنتهم وجوارحهم لله ، فإن الله تعالى يشرح صدورهم للإسلام ، ويجعل لهم من كل ضيق فرجاً ، ومن كل مشكلة مخرجاً ، ويبوّئهم العزة التى وعدهم بها ؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . [ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها] .

الولاية والبراءة والوقوف

يقول قطب الأئمة فى الشامل: «ولاية الجملة وبراءتها فريضتان بالكتاب والسنة والإجماع، على كل مكلف عند بلوغه إن قامت عليه الحجة»، وبعد مناقشة للموضوع قال: «وأما ولاية الأشخاص وبراءتها فواجبتان قياساً عليهما، ولورود أحاديث فى حب الإخوان فى الله، ومدح حبهم فى القرآن» وبعد مناقشة للموضوع قال: «وقال غيرنا لا تجبان».

لقد رأيت أن أبتدىء هذا الفصل، بهذه الحقائق التى يقررها قطب الأئمة رحمه الله ورضى عنه، وقطب الأئمة من المفكرين الأحرار القلائل، الذين جاد بهم الزمن فى هذا العصر الأخير، وهو بالإضافة إلى أنه من أولئك الذين فتح الله بصائرهم لفهم أسرار التشريع الإسلامى، وقذف فى قلوبهم نور الحكمة والمعرفة، وقواهم على الكفاح فى سبيل الله، ويسر لهم خدمة دينه فى عصور الانحطاط والظلام بالتحقيق، وطبق عليها الأحكام المستمدة من الكتاب والسنة، ورجح ما كان متأرجحا بين قوانين وأقوال. وهو مع هذا العمل المتواصل، والإنتاج الكتابى بما لم يبلغ إليه مؤلف فيما أعرف، ومع قيامه بالتدريس وبالوعظ والإرشاد. إنه مع كل ذلك موسوعة علمية متنقلة فى جميع فروع العلم، وكان يعيش فى عصره حياة حقيقية، فقد كان مطلعاً على ما يجرى فى العالم من أحداث، وتصل إليه جميع الحركات الثقافية، والمطاعن التى توجه إلى الإسلام، فيتصدى لها بالرد والنقد حسب قوتها أو ضعفها.

لست الآن بصدد الترجمة لهذا العلامة المحقق الذى كان صورة حية للصفات التى يجب أن يكون عليها المسلم، الذى ربط أواصر قلبه بربه، وترفع عن راحة

الدنيا ونعيمها رغبة فيما عند الله من نعيم ، ووقف نفسه للجهاد فى سبيل الله ، يحارب دسائس الصهيونية والصليبية وعملائهما فيما يبتكره المستعمرون من أساليب ، ويرد كيد علماء الدنيا الذين يتزلفون أصحاب السلطان للحصول على منافع عاجلة ، ويحبط خداع الفقهاء الجامدين ، وحيل مشائخ الطرق الذين يخدرون أعصاب الإرادة المسلمة لتستكين ، ويسممون أفكار الأمة المؤمنة بالبدع والخرافة لتستهين ، وعند ربك الخبر اليقين ...

لقد رأى الإباضية ، أن محبة المؤمن الموفى بدينه ، الحريص على واجباته ، المبتعد عن المحارم ، المتخلق بأخلاق الإسلام ، المتبع لهدى محمد عليه السلام ، المقتفى لآثار السلف الصالحين ؛ رأى الإباضية أن المؤمن إذا كان على هذه الطريق ، وجبت محبته على المؤمنين ، وأعلنت ولايته بين المسلمين ، وطلبت له المغفرة والرحمة من رب العالمين .

وانظر أيها القارىء الكريم ، إلى مجتمع لا تجرى فيه المحبة والمودة والرحمة إلا بين أولئك المؤمنين الذين علقوا مصائرهم بيد الله ، ووهبوا أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، ولم يربطهم فيما بينهم إلا الأخوة فى الله . فإذا نزغ أحدهم من الشيطان نزغ ، ولم يستعذ بالله فأقدم على المعصية ، ولم يسارع إلى التوبة ، انفصم هذا الرباط الذى يربطه بالمؤمنين ، وتحطمت هذه الأخوة التى قامت على الدين ، حتى يجدد إيمانه بربه ، ويستغفر الله من ذنبه ؛ ويصل حبال قلبه بفاطر السماوات والأرض .

فإذا فعل ذلك ، رجعت منزلته بين إخوانه كما كانت ، وعزت نفسه بينهم بعد أن هانت ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »

وقد رأى الإباضية أن هذا المسلم الذى يعلن بين الملأ قول لا إله إلا الله . محمد رسول الله ، ثم يجترىء على أوامر الله فيتخلى عن واجباته ، أو يقدم على ارتكاب

المحظورات ، أو يلقى الله بغير المظهر الذى يظهره للناس ، أو يفضل على شىء من دين الله شيئا مما يدعو إليه البشر ، أو يرتكس إلى التزلف لمخلوق — حى أو ميت — فيرجو منه ما لا يرجوه المؤمن إلا من الله .

رأى الإباضية أن هـــذا المسلم الذى وصفناه بالإسلام ، وأدخلناه بين أهل التوحيد ، لا يحق أن يكرم بالتساوى مع الصادقين ، ولا يمكن أن تشمله المحبة فى الدين ، بل يجب أن يجد الغلظة من المؤمنين ، وأن يسمع التقريع والتوبيخ ، وأن يطلب الابتعاد عنه ، وأن تعلن البراءة منه ، ويقلل التعامل معه ، حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ، ولا يجد ملجأ من الله إلا إليه . فإما أن يشرح الله صدره للإسلام ، وأن يفتح قلبه للإيمان ، وأن يسخر أعضاءه للعبادة ، وأن يباعد بينه وبين المعصية ، فيتوب مما ارتكب ، ويعود إلى حظيرة الإسلام ، بالعمل الصالح ، والجهاد المتواصل ؛ جهاد النفس والهوى ؛ فترتبط أواصره حينئذ بأواصر الناس ، ويصبح بعد الهداية والتوفيق أخاً فى الله . وإما أن يرتكس إلى الشيطان ، ويصر على العصيان ، ويستكبر عن التوبة ، ويبتعد عن محاسبة النفس ، ويستمر فى الغواية والضلال ، وحينئذ لا يمكن لأولياء الله أن يحبوا عدو الله ، ولا أن يرضوا عمن جاهره بالمعصية ، وإن القلوب المؤمنة ، لتستحى أن تتجه إلى المليك الديان ، لتطلب منه الرحمة والغفران ، لعبيد الشهوات وأغوياء الشيطان ، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »(١) إن العصاة الذين يصرون على ما فعلوا ، ويجاهرون الله والناس بما ارتكبوا ، انفصلوا بكبريائهم عن ربهم ، وابتعدوا عن محبة إخوانهم ، وحادّوا الله ورسوله « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله »(٢) « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين »(٣) « إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم »(٤)

(١) القصص ٥٦
(٢) المجادلة : ٢٢
(٣) المجادلة ٢٠
(٤) المجادلة : ٥

لقد كانت الصراحة والصدق والإيمان هى الصفات التى يتحلى بها المسلمون فى الصدر الأول ، فلا تجد إلا مؤمنين يتنافسون فى العمل الصالح ، أومنافقين أذلهم الله بنفاقهم ، أو مسلمين قد تغلب على أحدهم لمة من الشيطان فيرتكب معصية يستخفى بها ، ويستتر بذنبه وهو كظيم ، فلا تبلغ به الوقاحة إلى أن يستحل ما حرم الله ، ولا أن يجاهر بمعصية الله ، ولا أن يصر على ما ارتكب من ذنب ، وهو يعلم أنه ذنب ، بل إنه ليحاسب نفسه الحساب العسير على ما ارتكب من إثم ، ويرجع إلى ربه وهو مشفق أن يعرض عنه مولاه ، ويتخلى عنه برحمته وينساه .

إن المجتمع الإسلامى أنظف من أن تقع فيه المعصية من مسلم ثم يسكتون عنه فيدعونه فيهم محبوباً قبل أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والتكفير ، إن كانت المعصية مما يتحلل منه بالتكفير . قيل لابن عمر : إن فلانا يقرئك السلام ، فقال رضى الله عنه : لقد بلغنى أنه يقول بالقدر ، فإذا كان باقياً على شيء من ذلك ، فلا تبلغه عنى السلام . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « من رأينا منه خيراً ، وظننا فيه خيراً ، قلنا فيه خيراً وتوليناه ، ومن رأينا منه شراً ، وظننا فيه شراً ، قلنا فيه شراً وتبرأنا منه [١] » وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » [٢]

هذه قضية رابعة من القضايا التى يكاد ينفرد بها الإباضية عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، فلم يساووا بين مؤمن تقى وعاص شقى فى المعاملة ، وقالوا : يجب على المجتمع المسلم أن يعلن كلمة الحق فى كل فرد من أفراده ، وأن يتولى تهذيب الناشزين وتقويم المنحرفين ، وتربية الخطئين ، بالوسائل التى شرعها الإسلام للتربية الجماعية ، من أمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإعراض عمن يتولى عن الله .

وليس من الحق أبداً أن نتغاضى عن أولئك الذين يرتكبون المعاصى ،

---

(١) مقدمة التوحيد ٤٨ شرح أبى سليمان داود

(٢) مقدمة التوحيد ٩ من تعليق أبى اسحق .

ونضعهم فى صف واحد مع المؤمنين الموفين ، بل يجب أن نزجر العاصى عن معصيته وأن نعالنه بالعداوة مادام منحرفاً عن سبيل الله ، وأن لا نساوى فى المعاملة بينه وبين الموفى ، وأن لا نعطيه من المحبة وطلب المغفرة وحسن التعامل ما نعطيه للذى يراقب الله فى الخفاء والعلانية ، ويرجع إليه فى كل كبيرة وصغيرة ، ويقف عند حدوده التى رسمها لا يتخطاها « وليجدوا فيكم غلظة » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله »[1]

ويسرنى أن أختم هذا الفصل بهذه السطور الرائعة من كلام الأستاذ محمد الغزالى[2] :

« هل الدين إلا الحب والبغض ! . . إن الدين هو هذه العاطفة المشبوبة بمحبة الخير وأصحابه ، وكراهة الشر وأحزابه ، هو هذه العاطفة الدافقة المنسابة كالفيضان الموار ، لا تجد مستقرها إلا حيث تبلغ أهدافها ، لا يهمها أن تنحدر سفحاً ، أو تطوق قمة . . إن الدين هو هذه العاطفة الحرة اليسيرة : اشمئزاز من مسالك الفسقة يقبض يدك عن مصافحتهم ، ويجعل حمرة الغضب تصبغ وجهك لجراءتهم على ربهم ، فإما استطعت أن تخسف الأرض من تحتهم ، أو تقيم الدنيا وتقعدها حولهم . . وإلا فإن أقعدك العجز سكنت سكون المقهور على ما يلسعه من عار ، لا سكون البليد على ما وصل إليه من قرار . »

لقد شرح الأستاذ الغزالى فى هذه السطور القليلة قاعدة الولاية والبراءة التى سار عليها الإباضية منذ فجر التاريخ .

والإباضية لا يخرجون العصاة من الملة ، ولا يحكمون عليهم بالشرك ، ولكن يوجبون البراءة منهم وبغضهم ، وإعلان ذلك لهم حتى يقلعوا عن معصيتهم ويتوبوا إلى ربهم .

---

(١) المجادلة : ٢٢

(٢) فى موكب الدعوة : الطبعة الثانية ص ٨٥

كُفْر النعمة

يحسب كثير ممن لا علم له أن الإباضية يتفقون مع الخوارج فى تكفير العصاة كفر شرك ، ولا يعرفون أن الإباضية يطلقون كلمة الكفر على عصاة الموحدين ، الذين ينتهكون حرمات الله ، ويقصدون بذلك كفر النعمة ، أخذاً من الآيات الكريمة ، التى أطلقتها فى أمثال هذه المواضيع ، واستناداً إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين[1] » . « ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم »[2] . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[3] سأل الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحج علينا كل عام يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : [لو قلت نعم لوجب ، ولو وجب لما قدرتم عليه ، ولو لم تفعلوا لكفرتم] . [من ترك الصلاة كفر] . [ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة] . [ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض] . [الرشا فى الحكم كفر] .

وأمثال هذه الأحاديث كثير[4] حتى إن بعض رواة الحديث يبوب لهذا بقوله : « باب كفر دون كفر » . ويخطىء الناس فلا يصلون إلى الحقائق ، لأنهم

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧

(٢) سورة النمل آية ٤٠

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

(٤) جميع الأحاديث التى وردت فى هذا الفصل وردت فى صحيح الربيع .

لا يكلفون أنفسهم مشقة البحث والإطلاع ، فهم حين يسمعون أن الإباضية يحكمون بكفر عصاة الموحدين يحسبون أن هذا الحكم إخراج للمسلمين من الدين ، وحكم عليهم بالشرك ، وهذا ماذهب إليه الخوارج ، وإذن فالإباضية فرقة من الخوارج ! وهكذا يبنون نتائج على مقدمات مجهولة ، غير صحيحة ، فيتورطون فى خطأ شنيع ، وينسبون إلى فرقة من أحرص فرق الإسلام على قول الحق واتباعه ومن أشدها تمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ، ينسبون إليها أقوالاً أو آراء هى أبعد عنها من الذين ينسبونها إليها .

ولو رجع هؤلاء إلى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإلى سنة رسول الله الذى لا ينطق عن الهوى « إن هو إلا وحى يوحى » ثم اطلعوا على كتب المذهب وناقشوها فى أدلتها ومستنداتها ، وعرضوها على الميزان الذى وضعه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفهموا المعنى الذى يقصده الإباضية من كلمة الكفر حين تطلق على الموحدين ، إنهم لوفعلوا ذلك لوفروا على أنفسهم وصمة الجهل ، وعلموا أن هؤلاء الناس يحاسبون أنفسهم على كل دقيق وجليل ، قبل أن يحاسبهم الناس ، وأنهم لا يقدمون على قول أو عمل ، إلا إذا انبنى على آية محكمة ، أو سُنة متبعة .

وأعتقد أن ما تقدم يكفى لإيضاح المقصود من إطلاق كلمة الكفر على العصاة ويقصد بذلك كفر النعمة ، والسبب الذى دعا الإباضية إلى إطلاقهم هذه الكلمة على العصاة بدلا من كلمة النفاق أو الفسوق أمران : أولهما : أنها الكلمة التى أطلقها الكتاب الكريم والسُّنة القويمة عليهم فى كثير من المواضيع والمناسبات .

وثانيهما : أن لكلمة النفاق أثراً خاصاً فى تاريخ الإسلام ، فقد اشتهر بها

عدد من النـاس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آمنوا ظاهراً ولـكن قلوبهم لم تطمئن بالإيمان ، فـكان القرآن الـكريم ينزل بتقريعهم ويفضح بعضهم ويتوعدهم ، بالعذاب الأليم ، فى الدنيا والآخرة ، حتى اشتهروا بهذا الاسم ، وعرفوا به :

« المنافقون والمنافقات ، بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون[1] » .
حتى صارت هذه الـكلمة تشـبه أن تـكون علماً عليهم ، فإذا أطلقت انصرفت إليهم .

وقد أطلقت كلمة الـكفر فى الـكتاب العزيز على المنافقين فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أطلقت على عصاة الموحدين ، ووردت بالمعنيين فى الحديث النبوى ، ويقول علماء اللغة : إنها بهذا المعنى الذى يقصد به كفر النعمة إنما هى مشتقة من الـكفران .

وقد أطلقها القرآن الـكريم كثيراً بمعنى الشرك ، سواء كان الشرك شرك جحود أو شرك مساواة .

وخلاصة البحث أن الإباضية عندما يطلقون كلمة الـكفر على أحد من أهل التوحيد فهم يقصدون كفر النعمـة ، وهو ما يطلق عليه غيرهم كلمة الفسوق والعصيان ، والمعنى الذى يطلق عليه الإباضية كفر النعمة ، ويطلق عليه المعتزلة الفسوق ويطلق عليه غيرهم النفاق أو العصيان وهو معنى واحد .

وقد أطلقت الـكلمات الثلاثة على المنافقين فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) التوبة آية : ٦٧

كما أطلقت على الذين يجاهرون الله بالمعصية ، فيخالفون عن أمره .

والنقاش فى هذا الموضوع نقاش لغوى ، والاختلاف لفظى ، والنتيجة أن من يصر على معصية الله يلاقى نفس الجزاء الذى يلاقيه من يكفر بالله ، أما معاملة المسلمين لمن يفسق عن أمر الله أو ينافق فى دين الله ، أو يكفر بنعمة الله ، فإنها معاملة للعاصى المنتهك الذى تجب محاولة إرشاده إلى وجوب الاستمساك بدينه ورجوعه إلى أوامر ربه ، وإقلاعه عن محادّة الله ورسوله ، فإن أصر واستكبر وتغلب عليه الشيطان ، بُرىء منه ، ومن عمله ، وجافاه المسلمون ، على ما تقدم فى فصل الولاية والبراءة حتى يتوب .

مسالك الدين

يقول صاحب عقيدة التوحيد[1] : « مسالك الدين أربعة : الظهور والدفاع والشراء والكتمان » .

إن المجتمع الإسلامى إما أن يكون ظاهراً على أعدائه ، حراً فى أراضيه — مستقلا بأحكامه ، عاملا بكتاب الله وسنة رسوله ، منفذاً لأحكام الدين ، لا يخضع لأجنبى بوجه من الوجوه ، ولا يستبد به حاكم ، ولا يطغى عليه ذو سلطان . فهذه الحالة هى حالة الظهور ، وهى أكمل الحالات للمجتمع المسلم ، وعليها يجب أن تكون الأمة ، لأنها المنزلة التى ارتضاها الله للمؤمنين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . فإذا انحدر المسلمون عن هذا المقام ، وتضاءلوا عن هذا الشرف ، ونزلوا عن هذه المرتبة التى رفعهم إليها الإيمان بالله ، والثقة فيه ، فيجب أن لا يهادنوا الظلم ، وأن لا يستكينوا للطغيان ، وأن لا يسمحوا للأيدى العابثة ، أن تعبث بمقدرات الأمة ، فتنتهك حرماتهم ، وتحول دون أمور دينهم ، وتتحكم فى أعمالهم وعباداتهم ، وتتصرف فى أموالهم بغير التشريع الذى وضعه عالم الغيب والشهادة ، والهدى الذى تركه محمد صلى الله عليه وسلم لأبناء الإسلام .

إذا انحدرت الأمة إلى هذه الوهدة فتسيطر عليها عدو أجنبى ، أو تخلى — من أولته الأمة ثقتها ، وأسلمته مقاليدها ، ووضعت بين يديه رعايتها -- عن الأمانة ، وحاد بها عن الطريق ، وخان الله ورسوله والمسلمين فيما وضع بين يديه ، وجب حينئذ أن يقف المسلمون فى طريق تلك الدولة الباغية ، يأمرونها بالمعروف ، وينهونها عن المنكر ، ويلزمونها أن تسلك بهم طريق الصواب ، فإذا اعتزت بالإثم ،

---

(١) مقدمة التوحيد ص ٦

واستمرأت طعم الظلم ، واستكبرت أن تخضع لأمر الله ، وأن ترجع إلى سبيل الله ، فحينئذ يأتى القسم الثانى من التنظيم الإسلامى وهو الدفاع ، والدفاع فى مسالك الدين يرادف ما يعبر عنه فى العصر الحاضر بالثورة . . . الثورة على الاستعمار الأجنبى ، أو الثورة على الاستعمار الداخلى : كالثورة على الظلم ، والثورة على الاقطاع ، والثورة على الفساد ، والثورة على الانحراف عن دين الله فى كل مظاهره وأشكاله . والزعيم الذى يقود هذه الثورة يسمى « إمام الدفاع » وله على الأمة الثائرة حق الطاعة والامتثال ، مادامت الثورة قائمة ، فإذا استقرت الأمور ، ورجعت إلى الهدوء والاستقرار ، أصبح واحدا من أفراد الأمة ، له حقوقهم ، وعليه واجباتهم ، ورجوع الأمور إلى نصابها يكون بأحد أمرين ، إما نجاح الثورة ، وإما فشلها ؛ ونجاحها يكون بأحد أمرين ، إما استجابة الدولة لمطالب الأمة ، ورجوعها إلى أحكام الله ، وفى هذه الحالة ينتهى عمل الثورة إلى هذا الحد . وإما الإطاحة بالنظام الفاسد ، وقلب الحكم الظالم ، وتغييره إلى نظام إسلامى ، يتمشى مع التشريع الذى جاء به كتاب الله الكريم ، وعندئذ أيضاً لا يكون لزعيم الثورة أو أمير الدفاع ، أى حق فى الحكم ، إلا إذا اختارته الأمة ،لشروط توفرت فيه بعد الهدوء والاجتماع والتفكير والمفاضلة ، حسب الشروط المتبعة فى اختيار أمير للمؤمنين .

فإذا ضعف المسلمون حتى عن هذا الموقف ، وأصبحوا لا يستجيبون لداعى الثورة ، ويفضلون طريق السلامة ، ويركنون إلى الدعة والاستراحة ، جاء المسلك الثالث من مسالك الدين ، وهو الشراء ، فحق لقلة منهم إذا بلغوا أربعين شخصاً أن يعلنوا الثورة على الفساد ، وبما أن هذه الثورة التى يقوم بها عدد قليل لا يتوقع لها النجاح فى كفاحها ضد دولة ظالمة مسلحة ، وأمة مستكينة راضية بالذل ، إن هذا التنظيم يشبه أن يكون شغباً على دولة ظالمة حتى لا تطمئن إلى تنفيذ خططها الجائرة . وقد لا تكون لها نتائج غير هذا القلق الذى

يخيم على الظالمين ، والتوجس والخوف الذى يسود أعمالهم وحركاتهم ، ولذلك فقد اشترط لهذا التنظيم ، شروط قاسية لا يقبلها إلا الفدائيون ، الذين وهبوا حياتهم لحياة الأمة ، وذلك أنه لا يحل لهم بعد أن ينخرطوا فى هذه المؤسسة ، أن يعودوا إلى بلادهم ، أو يستقروا فى أمكنتهم ، أو يتخلوا عن رسالتهم ، حتى ينتهى بهم الأمر إلى النجاح أو القتل ، والقتل أقرب الأمرين إليهم ، وعندما تضطر الظروف أحدهم إلى منزله لشأن من شؤون تمديد الثورة ، كالتزود ، فإنه يعتبر فى منزله غريباً مسافراً يقصر الصلاة ! ولكنه عندما يكون فى شعف الجبال ، أو بطون الأودية ، يقطع المواصلات على الطغاة ، أو يهدم الجسور التى تمر بها القطر الظالمة ، أو يقتلع أسس القلاع التى تجمع ذخيرة الجبابرة ، حينئذ يعتبر فى منزله وبين أهله ، وهم فى كل ذلك لا يحل لهم أن يروّعوا الآمنين ، أو أن يسيئوا إلى المسالمين . إنه تنظيم رائع للفدائية فى الإسلام عندما تتحكم الظلم ، ويستعلى عبيد الشيطان ، وتعطل أحكام الله بأحكام الإنسان ، يقول أبو إسحاق « الشراء من أخص أوصاف الإباضية » .

فإذا رضيت الأمة بالذل ، واستسلمت للظلم ، وجرى عليها حكم الطغاة ، ولم يقم فيها من يثور لكرامة الإسلام المهدرة ، ولا لشرف الرسالة التى أعزت الإنسانية . وتغلب حب الدعة على كل فرد ، وركن الجميع إلى الراحة ، فلم تتكون حتى الفدائية التى تقض مضاجع الظالمين ، وتذكرهم أن حكمهم لن يقر ، وأن كراسيهم لن تستقر ، وأن المقاومة لا تزال هى أمل المؤمنين ، وأنهم سوف يحاسبون أمام الله والأمة حساباً عسيراً .

إذا ضعفت الأمة حتى عن هذه المرتبة ، أصبحت تحت التنظيم الأخير ، تنظيم الكتمان . وعندئذ يجب أن يبتعد المؤمنون عن مساعدة الظالمين

بتولى الوظائف الظالمــة ، وأن تتولى شؤونهم جمعيات تبث فيهم هداية الله ، وتملأ قلوبهم بالإيمان بالله ، وتنشر فيهم المعرفة والثقافة الإسلامية التى تبصرهم بدين الله ، فلا تكون علاقتهم بالظالمين إلا فى أيسر طريق ، وأضيق مجال ، فيما يتعلق بجباية الأموال المفروضة عليهم للحاكمين . وهى الجمعيات ، أو ما يسمى فى التنظيم الإباضى « بحلقة العزابة » .

العزابة

تعريف العزابة : العزابة هيئة محدودة العدد ، تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا . وهذه الهيئة تقوم بالإشراف الكامل على شئون المجتمع الإباضى ؛ الشئون الدينية ، والشئون التعليمية ، والشئون الاجتماعية ، والشئون السياسية . وهى فى زمن الظهور والدفاع تمثل مجلس الشورى للإمام أو عامله ومن ينوب عنه ، أما فى زمنى الشراء أو الكتمان فهى تمثل الإمام وتقوم بعمله .

تختار هيئة العزابة من بينها شيخاً يسمى « شيخ العزابة » يكون أعلمهم وأكثرهم كفاءة ، ولا يشترط فيه أن يكون أكبرهم سناً ، والشيخ يرأس الهيئة فى جلساتها ، ويمثلها فى جميع أعمالها ، ويتكلم باسمها ، وينفذ قراراتها ، ويتولى الإشراف المباشر على جميع شؤون البلد أو الأمة ، ويجب أن تعرض عليه جميع المشاكل والأحداث ، وحكمه بعد قرار الهيئة نافذ فى جميع الأحكام .

اشتقاق كلمة العزابة : اشتقت هذه الكلمة من العزوب أو العِزَّابة ، وهى تعنى العزلة ، والغربة ، والتصوف ، والتهجد ، والانقطاع فى رؤس الجبال ، ويقصد بها فى هذا الاستعمال الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة ، والإعراض عن حظوظ النفس ، والبعد عن مشاغل الحياة ، من أهل ومال وولد ، فإن العزابى لا يعطى لهؤلاء من جهده ووقته إلا القليل ، أما أعظم طاقاته فيجب أن يصرفها لله فى خدمة المسلمين ، دون مقابل يتقاضاه على عمله ، أو أجر يرجوه منهم ، لأن أجره وحسابه على الله .

معنى كلمة الحَلْقَة : كلمة الحلقة استعمال ثان يقصد به هيئة العزابة ، فهى مرادفة لها . وقد أخذت هذه الكلمة من التحليق ، وهو الاستدارة ، وذلك

أن العزابة فى اجتماعاتهم الرسمية يجلسون على هيئة حلقة أو دائرة ، وهو أنسب وضع لتبادل الآراء ، ودراسة وجهات النظر المختلفة .

كما أن الجلوس على هذا الوضع أفضل حال عند الدراسة ، أو تلاوة القرآن الكريم ، والاتجاه إلى الله بالدعاء .

مقر العزابة : المقر الرسمى للعزابة يكون فى المسجد ، ولذلك فلزام أن يكون فى جانب من جوانب المسجد بيت خاص بالعزابة ، ويستحسن أن يكون بعيداً عن مجالس الناس ،حتى لا تسمع المداولات التى تجرى فيه ، وهذا البيت الخاص بهم لا يجوز لغيرهم الدخول إليه مطلقاً ، ويتحتم على الجدد منهم أن يقوموا بتنظيفه ومراقبته وفرشه وملاحظة جميع ما يلزمه ، وفيه تحفظ وثائقهم فلا يطلع عليها أحد غيرهم . وجميع المداولات والمناقشات والمباحث التى تجرى داخله تعتبر سرية ، لا يجوز إخراجها وإفشاؤها لأى سبب من الأسباب ، ما عدا القرارات التى تتخذ للتنفيذ فيتولى الشيخ إعلانها ، وقد ينوب عنه أحد الأعضاء الآخرين ؛ ولا يجوز للعزابة أن يناقشوا أى موضوع فى غير مقرهم الرسمى ، وبعد أن ينتهوا إلى قرار فى أى موضوع يحق لهم أن ينتقلوا إلى مكان آخر لتنفيذ ذلك القرار ، إذا كان تنفيذه يقتضى منهم الانتقال ، وإذا أصدروا أمراً فى شأن من الشؤون الاجتماعية للبلد ، كتحديد المهور ، أو تحديد الأسعار ، أو بدء العمل فى المواسم الزراعية ، أو ما شاكل ذلك ، فلم يستجب الجمهور لقرارهم اعتصموا فى مقرهم ، ولزموا المسجد دون أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، وامتنعوا من دخول الأسواق والبلد ، حتى يستجيب الناس للحكم ، ويقوموا بتنفيذ الأمر ، ولم تحدث مثل هذه الحالة عند الإباضية فى ليبيا ، إلا عدداً قليلا من المرات ، استجاب فيها الناس لأمر العزابة بأسرع ما يمكن ، بل لقد كان الناس يسارعون حين يسمعون بمثل هذا الموقف من العزابة ، فيقنعون بعضهم ،

ويبلغون موافقتهم إلى المجلس قبل حضور وقت الصلاة الثانية ، فتشير الأمور في معتادها .

عدد أعضاء الحلقة : يتراوح عدد أعضاء الحلقة بين عشرة أعضاء وستة عشر عضواً ، يوزع عليهم العمل كما يأتى : —

١ — شيخ العزابة : ويكون أعلم القوم ، وأقوام شخصية ، وأقدرهم على حل المشاكل .

٢ — المستشارون : ويكون عددهم أربعة لا يزيدون ولا ينقصون ، ويلزمون الشيخ ، ولا يقطع أمراً دون موافقتهم .

٣ — الإمام : شخص واحد ، يقوم بصلاة الجماعة ، ويجوز أن يكون أحد الأربعة المستشارين .

٤ — المؤذن : وهو شخص واحد مسئول عن تحرى أوقات الصلاة ، والقيام بمهمة الأذان ، ويصح أن يكون أحد الأربعة المستشارين .

٥ — وكلاء الأوقاف : يخصص عضوان للإشراف على الأوقاف ، وعلى ميزانية الحلقة . وضبط الواردات والصادرات. وطريقة إصلاح وتنمية الأوقاف، ويشترط فى هذين العضوين بالإضافة إلى الشروط العامة لأعضاء الحلقة ، أن لا يكونا من الأغنياء المكثرين ، ولا من الفقراء المعوزين ، ولكن من متوسطى الحال المستورين .

٦ — المعلمون : يخصص ثلاثة أعضاء أو أكثر أو أقل حسب الحاجة، للإشراف على التربية والتعليم . وتنظيم الدراسة . ومراقبة التلاميذ فى المحاضر . وهى دور التعليم . أو فى الأقسام الداخلية . وما إلى ذلك من شئون التعليم.

٧ — حقوق الموتى : يخصص أربعة أعضاء أو خمسة للإشراف على حقوق

الموتى ، فيتولون الإشراف على غسلهم ، وتجهيزهم ، والصلاة عليهم ، ودفنهم ، ومراقبة تنفيذ وصاياهم ، وتقسيم تركاتهم حسب الفرائض فى أحكام الإسلام .

وإذا توفى شخص وهو فى براءة المسلمين بأن مات على معصية ، فإن هولاء العزابة لا يقومون بحقوقه ، لأن العاصى لا حق له على المؤمنين ، ولكنهم يسمحون لمن شاء من غير أعضاء الحلقة أن يقوم بتلك الحقوق ، ذلك أن القيام بأمور الميت فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض أجزى عن الباقين .

شروط العضوية : يشترط فى أعضاء العزابة عدة شروط منها :

١ — أن يكون حافظا لكتاب الله .

٢ — أن يمر بمراحل الدراسة مرحلة مرحلة ، ويستوفى الدراسة فيها .

٣ — أن يكون محافظا على الزى الرسمى للطلبة عندما كان فى الدراسة ، وللزى الرسمى للعزابة عندما يدخل الحلقة .

٤ — أن يكون أديبا كيسا فطنا ، ذا لباقة ومهارة فى تصريف الأمور .

٥ — أن يكون محبا للدراسة راغبا فيها ، مواصلا للتعلم والتعليم .

٦ — أن لا تكون له مشاغل دنيوية كثيرة تحمله على كثرة التردد على الأسواق ، والاختلاط بالعامة والسوقة ، اختلاطا يزرى بمقامه ، ويذهب بهيبته .

٧ — أن يغسل جسده بماء ، ويغسل قلبه بماء وسدر ، وهذه عبارة اصطلاحية ، يقصد منها أن يكون الإنسان نظيف اليد ، والبطن ، والعين من أموال الناس ، وأن يكون نظيف القلب من جميع أمراض القلوب ، أى أن يكون طاهر الباطن والظاهر .

وقد شرح أبو عمار عبد الكافى هذه العبارة بقوله : « أما الجسد فيغسله من الدنس فى الناس ، وأما القلب فيغسله من الغش والتكبر وما أشبه ذلك مما يوجب حبط العمل » والعبارة كما ترى فى غاية الدقة ، وهى تحتمل أكثر مما أشرت إليه وأشار إليه العلامة أبو عمار ، فتأملها ، فكلما تأملتها وجدت فيها معنى جديداً . . .

ولقد شدد المشايخ فى تنظيف المؤمن لقلبه ، لأن أدران القلوب أشد قذارة من أدران الأبدان ، ولذلك أوجبوا عليه أن يغسل جسده بالماء ، وأن يغسل قلبه بماء وسدر ، وهى كناية تفيد الحرص الشديد على نظافة الباطن أكثر من نظافة الظاهر ، فإن من طهرت سريرته حسنت سيرته ، واستقامت أموره ، وكثرت محاسبته لنفسه ، ورعايته لسلوكه ، وفى ذلك النجاح .

واجبات الحلقة : على هيئة العزابة واجبات أكيدة هى مسئولة عنها باعتبارها هيئة ، وتتخلص هذه الواجبات فيما يلى :

١ — الإشراف على التعليم وتهيئة الوسائل لذلك ، وتيسير السبل أمام جميع الأطفال لينالوا قسطا من الدراسة ، ويتعلموا جزءا من القرآن الكريم وما يعرفون به أمور دينهم . وهذا أقل ما يمكن أن يتاح للطفل ، فاذا كانت أسرة الطفل فقيرة بحيث لا تستغنى عن مجهوده الضعيف ، أو ليس لها ما تمونه به أوقات الدراسة وجب أن تقدم له مساعدة ، وذلك بالإنفاق عليه .

٢ — مراعاة الحالة الاجتماعية للناس ، وتيسير سبل الحياة للفقير والضعيف ، وإيجاد العمل للجميع ، وذلك بمطالبة الأغنياء وأصحاب اليسار أن يستعينوا بالفقراء فى إنجاز أعمالهم مقابل أجور ، كثيراً ما يعينها أعضاء العزابة .

٣ — حل المشاكل التى تنجم بين الناس ، والفصل فى قضاياهم ، والحكم بينهم فى خصوماتهم ، وإيصال الحقوق إلى أصحابها .

٤ — الإشراف على أوقاف المساجد ، وعلى ميزانية الحلقة أو ضبط الصادر والوارد ، وإنفاق جميع ذلك فى وجوهه ، والعمل على تنمية الأوقاف الثابتة ، وإصلاحها ، واستغلالها أحسن استغلال .

٥ — حفظ الأسواق ومراقبتها من أن تقع فيها معاملات لايبيحها الشرع ، أو أن ترد إليها أموال مسترابة أو مشبوهة .

٦ — تنظيم الحراسة البلدية على أموال الناس من زراعة وماشية حتى لا تصل إليها أيدى الغارة والسرقة والإضرار .

٧ — الحكم على العصاة والمجرمين وتأديبهم ، وإعلان البراءة منهم ، وقطع التعامل معهم حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الله .

٨ — القيام بالعلاقات الخارجية وتنظيمها ، سواء كانت علاقات حرب أو سلام .

هذه بعض المهام التى تناط بمجلس العزابة باعتباره هيئة مسئولة عن المجتمع أمام الله وأمام الناس ، وعلى الهيئة أن توزع الأعمال على الأعضاء حسب الكفاءة والمقدرة ، والذى يقوم بذلك إنما هو الشيخ بعد اتفاق الحلقة .

أين تنشأ حلق العزابة : تنشأ حلق العزابة فى كل بلد أو قرية ، وحلقة العزابة هم الذين يشرفون على أمور البلد أو القرية الخاصة ، فاذا كان هنالك أمر هام ، أو حدث أكبر من مستوى القرية أو البلد رفع إلى المجلس الأعلى للعزابة الذى يرأسه الشيخ الأكبر ، أو حاكم الجبل حسبما كان فى جبل نفوسة ، وذلك كمسائل إيقاع الحدود ، ومايتعلق بالأمن العام ، وما إلى ذلك من المشاكل

التى تكون أكبر من المستوى المحلى للقرية ، والهيئة الكبرى للعزابة أو الهيئة العامة لهم هى الهيئة التى يرأسها الشيخ الأكبر ، ولا بد أن يكون شيخا للعزابة فى بلده ويقوم مقام الإمام فى أزمنة الكتمان ، أما أعضاء العزابة الذين يكونون معه فهم المستشارون ، ويكونون من شيوخ حلق العزابة فى بلدانهم . ومقرهم هو مركز البلاد وعاصمتها ، ولهم مع الشيخ اجتماعات دورية ، مرة فى كل ثلاثة أشهر ، ومتى دعت الحاجة . وأحكام هذا المجلس نافذة على جميع البلاد ، وكل الحلق خاضع ماديا وأدبيا لهذا المجلس ، ويعتبر السلطة الحقيقية للمجتمع الإباضى ، أما بقية الحلق فهى مساعدة له ، منفذة لأعماله ، ويجب على الشيخ الأكبر للعزابة أن يكون مقر حكمه فى مركز البلاد ، فاذا اختار السكن فى غير ذلك المكان فعليه أن يباشر الأحكام فى مركز الحكم لا فى محل السكن كما كان يفعل أبو هارون موسى بن هارون ، وأبو عبد الله بن جلداسن اللالوتى ، وأبو يحيى الأرجانى ، وغيرهم .

إن شيخ العزابة فى المجتمع الإباضى يمثل سلطة الإمام العادل ، ويقوم بجميع مهامه فى النطاق الذى تسمح به ظروف الحياة فى زمن كل واحد منهم . وهو مقيد بمجلس الشورى الذى لا يحق له أن يصدر رأيا قبل موافقته ، اللهم إلا فى الأحكام الثابتة فى الدين الإسلامى . وله أن يستعين بشخص يقوم له مقام المفتى . والقصد من هذا المفتى هو تحرير نصوص الحكم المستمدة من الشرع الشريف . أو المساعدة على ترجيح الأقوال فى المسائل الخلافية التى تتعدد فيها وجهات أنظار الفقهاء . وليس المقصود من وجود المفتى أن يبصر الشيخ بأحكام لا يعرفها . لأن شيخ العزابة يشترط فيه أن يكون من أعلم المشائخ ، إذا لم يكن أعلمهم .

وفى الاجتماعات الدورية التى تعقد فى ثلاثة أشهر . أو فى ستة أشهر . يحضر

ممثلون عن جميع حلق العزابة . ويستعرضون ما لديهم من مشا كل ، و يدرسون معا وضع المجتمع . ويتخذون فى ذلك القرارات االلازمة · ويرسمون خطط السير فى المستقبل ، على أنه يحق لـكل حلقة أن تتصل بالمجلس الأعلى · وتدعوه للانعقاد إذا كانت هنالك أسباب تدعو إلى ذلك . كما أن لها الحق أن تعرض مشاكلها الخاصة على الشيخ الأكبر ، وتقتبس منه الرأى والنصيحة .

و يمثل كل حلقة من حلق العزابة شيخها و بعض مستشاريه ، إلا فى أحوال الضرورة التى يتعذر فيها عليه أن يقوم بهذه المهمة .

اختيار أعضاء الحلقة : يراعى فى اختيار العزابه بالإضافة إلى الشروط التى يجب أن تتوفر فى كل شخص أن يكونوا ممثلين للقبائل أو الجهات التى يشتمل عليها البلد ، ولا يشترط تساوى العدد ، كما أنه إذا لم يوجد فى قبيلة ما من تتوفر فيه الشروط الشخصية أخذ من غيرها ، وعندما يحتاج العزابة إلى إضافه عضو جديد إلى الحلقة يأخذونه عن أحد طريقين :

إما أن يطلبوا من القبيلة التى يراد أخذ العضو منها أن ترشح عدداً ممن تتوفر فيهم شروط العضويه ، والـكفاءات المطلوبة مع الشهرة بالصلاح ، والتقوى ، والعفاف ، والنزاهة ، وحب الخير ، والإيثار ، والتضحيه ، والعمل للصالح العام ، فتختار الهيئة واحدا منهم: وإما أن يطلبوا إلى منظمة «إِيرْوَانْ» أن يقدموا إليهم واحدا ممن يملأ ذلك الفراغ .

حين يتعين العضو لأن يشغل مركزاً فى العزابة، يدعى إلى مقرهم الرسمى ، و يتولى الشيخ تعريف بالسيرة التى يجب عليهأن يسيرها ، وبالأدب الذى يلتزمه ويؤكد عليه أن يعرف أن من أوكد الواجبات عليه أن يحافظ على آداب الإسلام ، و يتخلق بأخلاقه الحميدة ، من الاستقامة والنزاهة ، والعفة ، والانقطاع إلى خدمة

الأمة ، والتزام المسجد ، والإعراض عن حظوظ الدنيا إلا بمقدار الضرورة ، والاجتهاد فى العبادة ، والتواضع للمؤمنين ، والغلظة على العصاة والمجرمين ، وأن يكون قدوة حسنة للناس فى قوله وفى عمله ، وأن يتحرى فى رزقه التحرى الكامل، ويختار له أن يكون مجال احترافه الزراعة ، لأن التجارة تسبب له احتكاكا مباشراً بالناس ، فيغلب أن لا يسلم منها بالحق أو بالباطل ، وهم يلخصون هذا الموقف فى عبارة مشهورة متداولة هى : —

« أن لا يكون فى غير مسجده ، أو حقله أو بيته » ، وبعد أن يعرف بجميع ما يترتب عليه من حقوق وواجبات ، وما يلقى عليه من مهام ومسئوليات ، يطلب إليه أن يعلن عن قبوله أو رفضه ، فإذا أعلن قبوله -- وهذا ما يحدث فعلا — أسندت إليه المهام العملية ، كأن يقوم بالتدريس أو وكالة المسجد ، أو الاشتراك فى الإشراف على حقوق الموتى ، ثم أعلم أنه يعتبر أصغر العزابة . ولو كان أكبر من بعضهم سناً ، وعليه أن يتولى خدمتهم ، ويطلب إلى سلفه — أى العزابى الذى كان أصغرهم قبل هذا العضو الجديد — أن يبقى معه ثلاثة أيام، يدربه فيها على آداب خدمة العزابة ، لأنه يعتبر رئيسه المباشر ، وعندما يجلس العزابة يتحتم أن يكون مجلسه بعده . وترتيب مجالس العزابة ضرورى ، فلا يجوز للمتأخر أن يسبق المتقدم ، والعزابى يعتبر رئيساً فى أى مكان يوجد فيه ، وله وحده حق افتتاح الكلام فى المجالس العامة ، وكذلك اختتامه، وإدارة المناقشات ، وما إلى ذلك ، فلا يجوز لتلميذ أو عامى أن يتولى شيئاً من ذلك إلا بإذنه .

عقوبة العزابى :

المطلوب من العزابى أن يكون قدوة ومثلا للاستقامة ، ولذلك فإن ما يعتبر

من غيره أخطاء صـــغيرة يعتبر منه أخطاء كبيرة يجب عليه الاحتراس منها ، والابتعاد عنها ؛ وهذا حتى فى مكارم الأخلاق ، ومعاملة الناس ، فإذا قدر عليـه فأخطأ ، نظر مجلس العزابة فى موضوعه :

فإن كان الخطأ كبيراً يتصل بمعصية الله ، ويسىء إلى سمعة العزابة ، أو يلحق إهانة بالمسجد ، أو استخفافا بالحق ، أو ما أشبه ذلك ، وجب عليهم أن يحكموا عليه بالبراءة على الأشهاد ، كما يقع بالنسبة لغيره من الناس ، ولا يرفع عنه حكم البراءة حتى يتوب علنا ، وليس له بعد ذلك حق الرجوع إلى مجلس العزابة أبداً ، فإن من أخرج من هذا المجلس بطريق البراءة لا يحق له دخوله مرة ثانية ، وإن تاب ونصحت توبته ، ويبقى كسائر المسلمين له حقوقهم وعليه واجباتهم .

أما إذا كان الخطأ صغيراً لا يقتضى التوبة ، فإنهم يعقدون له مجلس تأديب سرى ، وقد يحكمون عليه بالإبعاد عن مجلس العزابة لمدة طويلة أو قصيرة حسب الخطأ الذى ارتـكبه ، وستروا عليه ذلك عن الناس .

وسبب هذا الحـكم كان العزابة من أشد المحافظين على الإسلام وآدابه ، وقد لخص أحد المشائخ هذه السيرة فى عبارة لطيفة فقال : « إن مُـتَـولى الناس مثل اللبن يغيره أى شىء يقع عليه » .

كيف تكوّن نظام العزابة :

فى أواخر القرن الثالث الهجرى وقعت حادثتان كبيرتان ، وكان لهما أثر كبير على الإباضية ، فى ليبيا وتونس والجزائر :

الأولى الحرب الطاحنة بين الأغالبة والإباضية فى قصر مانو ، وقد تلقى فيها الإباضية ضربة عنيفة من يد الطاغية أحمد بن الأغلب .

أما الثانية فهى تغلب الشيعة على الدولة الرستمية فى الجزائر ، وقضاؤهم على هذه الدولة .

وإذا كانت كلتا الدولتين الأغلبية والشيعية لا تتبعان أحكام الإسلام ، ولا تعملان بها ، فقد فكر علماء الإباضية فى جعل نظام يسيرون عليه ، يحفظون به أحكام الله فى مواطنهم ، ويسيّرون به الأمة فى الوجهه الصالحة ، دون أن يلتجئوا إلى إعلان دولة جديدة ، أو يتعلقوا بدولة ظالمة مستبدة .

فاهتدوا إلى وضع هذا النظام، وقد كان فى أول الأمر عُرفاً يسيرعليه الناس، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن بكر فى أواخر القرن الرابع ، فحرره على شكل قانون يشتمل على مواد ، ثم طبقه تطبيقا كاملا فى مواطن الإباضية ، فى ليبيا ، ثم فى تونس ، ثم فى الجزائر ، حيث لا يزال يطبق بدقة ؛ وعلى هذا الأساس اعتبر المؤرخون أن الإمام أبا عبد الله هو واضع نظام العزابة ، والحق أنه يعتبر واضعاً لهذا النظام ؛ فلولاه لما وصل إلينا على تلك الطريقة المنسقة ، وقد جاء بعد أبى عبد الله عدد من العلماء الكبارعنوا بدراسة هذا النظام عناية خاصة ، وأضافوا إليه بعض المواد ، وأطلق عليه بعضهم لفظ « سيرة العزابة » ، ومن العلماء الذين عنوا به ، وكتبوا عنه : أبو زكرياء يحيى بن بكر ، وأبو عمار عبد الكافى ، وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتى ، وقد حرص المتأخرون منهم أن يضيفوا إليه جملا فى آداب العالم والمتعلم . وآداب حلقة العزابة وما يجب أن تتنزه عنه .

والذى يدرس هذا النظام كما شرحه أولئك الأئمة الأعلام يخرج بقانون فذ لنظم التربية والتعليم من جهة ، وللسيرة الصالحة التى يجب أن يسير عليها المسلمون، فتحفظ عليهم خلقهم ودينهم ، عندما تسيطر عليهم دول البغى والعدوان .

كما كان ذلك عند الإباضية فى الجزائر ، رغم ما بذلته فرنسا المستعمرة الظالمة الباغية ...

قوة العزابة :

استطاع العزابة أن يحتفظوا بهذا النظام طيلة قرون طويلة ، وأن يعملوا به وأن يطبقوا بمقتضاه الأحكام على جميع الأفراد ، دون أن يشذ منهم شاذ ، أو يتكبر عليهم متكبر .

فما هو السر الذى منحهم هذه القوة وأسلس إليهم قياد الناس ، فكانوا يتقبلون أحكامهم ويستجيبون لأوامرهم ، لايحدثون شغباً ، ولايظهرون تمرداً ...

إن لذلك سببين هامين :

الأول : الشخصية القوية التى تتمتع بها هيئة العزابة بسبب الصفحات المثالية التى تتصف بها الحلقة كهيئة ، وأعضاء العزابة كأفراد ، فإن المؤمن عندما يلتزم آداب الإسلام ، ويسير بهديه ، ويسير السيرة الرضية ، يكون موضع الإحترام والتقدير والطاعة من جميع الناس ، وتسلس له أزمه القيادة ، إذا تولى ذلك فى مجتمع أو أمة .

الثانى : حكم الولاية والبراءة الشخصيتين : هذه القاعدة الهامة التى يختص بها الإباضية دون غيرهم من المذاهب فيما أعرف . وكلمة الولاية تعنى الحب فى الله ، وكلمة البراءة تعنى البغض فى الله . والولاية حق لكل مسلم مستقيم عرفت فيه التقوى والوقوف عند حدود الله ، أما البراءة فواجب على كل مؤمن أن يعلن براءته وبغضه للعصاة والمجرمين . حتى يتوبوا إلى الله .

ولما كانت هيئة العزابة هى المسئولة عن تنفيذ أحكام الله ، فإن من واجباتها عندما يثبت لديها انحراف عن دين الله فى أى شخص . أن تعلن عليه حكم البراءة

وعند ما يعلن حكم البراءة على شخص ، سرعان ما يتبدل وجه الحياة لديه ، فيفقد ما كان يجده من حسن المعاملة ، وإشراقة الحب فى الله ، ويتجافى عنه الأصدقاء ، و يتجافى عنه الأهل والأقارب ، و يقطع الناس معاملته إلا بالمقدار الضرورى جداً ، فيجد نفسه معزولا عن المجتمع ، لا حق له فى الحياة الكريمة ، ولذلك يضطر إلى التوبة والاستغفار والندم علنا ، وفى المسجد ، فإذا تأكد مجلس العزابة أن الرجل صادق فى توبته ، نادم على خطيئته ، راجع إلى ربه ، أعلنوا رفع البراءة عنه .

وعندئذ ترجع إليه جميع الحقوق . و يستمتع بكل ما كان يستمتع به قبل أن يغره الشيطان ، وليس من حق أحد بعد التوبة أن يذكره بمعصيته ، أو يعيره بماضيه .

مُنظمة إيرْوَانْ :

« إِيرْوَانْ » كلمة بربرية معناها طلبة العلم الذين حفظوا القرآن الكريم ، فهم لا بد أن يكونوا من حملة كتاب الله ، ومن المشتغلين بالدراسة ، وهى جمع ، والواحد منها (إِرُو) أما بفتح الهمزة (أَرُو) فهو إسم يطلق على الحيوان المعروف بالظربان فى اللغة العربية ، وأما « آر » بفتح الهمزة ومدها وسكون الراء فمعناه الأسد ، وفى لهجة صنهاجه البربرية معناها هات أو اعْطِنى .

هذه المنظمة هى القوة الثانية فى البلد بعد العزابة ، ولها نظم وتقاليد وحقوق خاصة بها ، وهى كالمجلس الاستشارى المساعد للعزابة ، أو كمجلس النواب بالنسبة للشيوخ ، وكثيراً ما يسند العزابة أعمالا إلى مجلس « إيروان » .

وسوف أشرح الجانب العلمى منه فى فصل آت من هذا الكتاب « نظم التربية والتعليم » فليراجعه من شاء هنالك .

هذا ملخص يسير مختصر عن نظام العزابة الذى بقى يسير به الإباضية فى المغرب الإسلامى مدة طويلة .

وقد ارتفع حكم العزابة من مواطن الإباضية، فى ليبيا وتونس فى القرن الأخير، ومنذ ارتفع نظام العزابة فى هذه المواطن تسرب الفساد إلى المجتمع ، ولن يستطيع الإباضية أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من دين وخلق واستقامة ما لم يعودوا إلى الاستمساك بدين الله واللياذ به ، وإن المسلمين جميعاً ما أصيبوا بما أصيبوا به إلا لانحرافهم عن دين الله ، وخروجهم عن منهاجه .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

صيانة لكرامة المرأة

لقد كانت طبيعة الحياة فى الأمة المسلمة لا تبيح للمرأة أن تختلى برجل أجنبي عنها ، ولا تبيح لرجل أن يختلى بامرأة أجنبية عنه . وذلك خوفاً من الفتنة ؛ لأن الدوافع الجنسية قد تتغلب على النفس عند الرجل أو عند المرأة وهما مختليان ، فيصلان إلى المحذور ، ويقع السوء الذى منه يحذران ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : « إياكم والخلوة بالنساء ، والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » . وفى رواية : « دخل الشيطان بينهما » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه و بينها محرم[1] » .

ولكن واقع الحياة كثيراً ما يجعل المرأة فى طريق الرجل ، أو الرجل فى طريق المرأة بضرورة من الضرورات ، فيلعب الشيطان بينهما دوره ، ويحاول أن يخدعهما عن نفسيهما ، ويمهد لهما سبيل اللقاء الأول ، ويبسط لهما وسائل العذر لارتكاب الفاحشة ، فيمنيهما بأن يربط بينهما عرى الزواج فى المستقبل ، فيعد الرجل المرأة بالزواج ، ويغريها بالأحلام الضاحكة ، من تكوين العش والأسرة ، والهناء المنزلى القار ، حتى تطمئن إليه ، ويخيل إليها أنها ستبدأ مكانها الجديد ، وأنها قربت من تحقيق الحلم العذب ، فتسلم إليه نفسها ، وتتم لعبة الشيطان قبل أن يتم الزواج .

وأمثال هذه الحالة موجود وكثير ، وفى أغلب الأحيان لا يكون الرجل

---

(١) رواه الامام أحمد بلفظ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلونّ بامرأة ليس معها ذو محرم فان ثانيهما الشيطان » .

جاداً فى وعده للفتاة بالزواج ، وقد يكون جاداً ، ولـكن ظروفاً أخرى لا يملك السيطرة عليها تحول دون ذلك الزواج ، وينتج عن ذلك خسران فى الدين ، وفضيحة فى المجتمع ، وضياع لفتاة يمـكن أن يصان شرفها بشىء من الحـكمة . وتعالج بعض المذاهب الإسلامية هذه المشـكلة بفرض إتمام الزواج بين الفتى العابث والفتاة المخدوعة .

وفى هذا العصر الذى انطلقت فيه الفتاة — دون رعاية أحد — فى معترك الحياة ، ودعتها أساليب المدنية الغربية أن تتعرف على الرجل ، وأن تعيش معه ، وأن تختبر أخلاقه ، لتصطاد منه زوجاً تعيش معه ، فكانت هى الفريسة الأولى للصائدين — فى هذا العصر كثرت المشاكل الناجمة عن هذا الانطلاق والاختلاء ، واستعصت على جميع الحلول التى يضعها فلاسفة الغرب ، ورأى بعضهم فراراً من حل المشـكلة بالطرق الإنسانية ، فحاول أن يحلها بالطرق الحيوانية ، وذلك بالاستسلام لها ، وإطلاق الغريزة تعمل عملها ، وتهوين أمر الفاحشة ، وعدم حسبانها إثماً تلام عليه الفتاة أو الفتى .

وقد ابتلى الوطن الإسلامى بهذا الداء ، فأصبحت الفتاة فى بعضه منطلقة هذا الانطلاق الـكامل مع الشيطان ، وفى بعضه الآخر تدفع بشده — كما تدفع الشاة إلى المسالخ — لتلحق بأختها .

ولقد درس الإباضية هذه المشـكلة منذ خير القرون ، واتجهوا فيه إلى رأيهم الذى ينفردون به فيما أعرف ؛ فحرموا الزواج بين من ربطت بينهما علاقة إثم ، وقد كانوا فى تحريمهم لهذا الزواج يستندون إلى روح الإسلام الذى يحارب الفاحشة .

روت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « أيما رجل زنى بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان إلى يوم القيامة » .
وهذا الحكم ، حكم تحريم الزواج بين من ربطت بينهما فاحشة بطريق من الطرق يغلق باب الخدعة أمام الشيطان ، وأمام الإنسان ، فلا يستطيع بعدها أن يأتى الرجل إلى امرأة فيغرر بها ويخدعها عن نفسها ، ويزعم لها أنه سوف يتم فعلته الشنيعة بالزواج .

وهذا الحكم ينير الطريق أمام المرأة ، فيجعلها تعرف الصادقين من الكاذبين من الناس الذين يتصلون بها ، وكل من حاول أن يسبق الحوادث ويصل معها إلى نتائج الزواج قبل الزواج فهو كاذب أثيم ، وخادع لئيم ، يحق لها أن تفر منه ، وتبتعد عنه ، أما الرجل الذى يحترم فيها خلقها ، ويصون لها عفافها ، ويحافظ على شرفها فى نفسه فهو الرجل الصادق ، الذى يريد حقاً أن يبنى عش الزوجية ، ويحيا الحياة الكريمة .

ولو كان هذا الرأى هو رأى جميع فرق الأمة ، وهذا الحكم هو حكمها ، لقل انحراف الفتاة عن القصد ، واستمسكت بطهرها وعفافها ، ولم تتعد حدود البراءة ، اللهم إلا من فقدت الحياء ، وأعدت نفسها لتحيا حياة دعارة وبغاء . لأنها إذا كانت تعرف أنها سوف تحرم على الرجل الذى تزل معه ، وتحرم منه ، فلا يمكنه أن يتزوجها لأن الدين يحرم هذا الزواج ، فهى سوف تفكر كثيرا قبل أن تتساهل فى أمر نفسها ، ثم هى تعلم أنه لا يمكن أن يقدم على الزواج منها أحد آخر . ومن ذا الذى يقدم على الزواج من امرأة لها ماض أثيم ؟ !

لقد عالج الإباضية موضوع التغرير بالفتاة قبل أن تقع فى المشكلة؛ فتأمل أيها القارىء الكريم هذا الرأى، وزنه بميزان الشرع القويم، وميزان العقل الحكيم، وميزان التفكير السليم . وإن شئت فأضف إلى ذلك: القاعدة الهامة التى وضعها الإمام العظيم مالك بن أنس للمعاملات ، واشتهرت فى كتب الفقه بباب سد الذرائع .

من أسرار الزكاة

يمر الإنسان صدفة بدور بعض الأغنياء أو متاجرهم أيام عاشوراء ، فيستلفت نظره ازدحام جمهور من الناس على ذلك الباب ، وحين يسأل عن سبب الازدحام يقال له : إنهم فقراء ينتظرون تفريق الزكاة .

وهذه الصورة متولدة عن علم الفقير بموعد صرف الزكاة ، إذ كثيراً ما يسأل الفقير الغنى أن لا ينساه عند تفريقه للزكاة ، فيعده الغنى بذلك ويحدد له اليوم ، وتصبح هذه الطريقة عادة ، وحتى إذا لم يسبق اتصال بين الفقير والغنى ، فإن الفقير يعرف عادة الغنى وموعد تفريقه للزكاة ، فيذهب فى الميعاد ، ويقف مع الواقفين ، ينتظر نصيبه من هذا الحق .

ويطل الغنى من النافذة فيرى الجمهور الكبير الذى ينتظره ، فيزدهيه الموقف ويحس أنه محسن عظيم ، يستفيد من ماله عدد ضخم من الناس ، وهذه نافذة من النوافذ التى يدخل منها الشيطان إلى قلب الإنسان .

إخراج الزكاة فريضة من فرائض الإسلام لا بد من أدائها ، وهى حق لأصحابها فى مال الغنى يجب أن يوصلها إليهم دون أن يصحبها هوان أو مذلة لهم ؛ فلماذا تصبغ بهذا المظهر الذى يدل أكثر ما يدل على الرياء والمباهاة ؟ ولماذا يجمع أرباب الحق فى الزكاة على هذا الصعيد فى هذا المنظر المؤذى ليؤدى إليهم حقا من حقوقهم ؟ !

أليس فى إمكان الغنى أن يفرق ما يجب عليه من حقوق الله على من يستحقها من الناس دون أن يكلفهم عناء التجمع والانتظار ، بل يوصلها إليهم

دون أن يكون بينه وبينهم اتفاق ، فيأتيهم بالفرج على حين غفلة ، ودون أن يحسبوا له حساباً ، ودون أن يحملهم مهانة السؤال ومذلة الانتظار ! !

إن الصورة التي ذكرت ، تجدها فى بعض المدن الكبيرة فى ليبيا ، وقد اعتاد الفقراء أن يذكروا الأغنياء بأنفسهم ، ويطالبوهم بحقهم فى الزكاة .

ويقف علماء الإباضية من هذه المشكلة موقفاً مستوحى من عزة الإسلام وكرامة المسلم .

فإنه ليس من أخلاق المسلم أن يظهر بمظهر الذليل المستجدى ، الواقف على الأعتاب ينتظر ما تجود به الأكف ، وتسخو به الأنفس الشحاح .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن الاستجداء والمسألة ، واعتمد الإباضية تلك الأحاديث الشريفة ، فمنعوا المسلم من إراقة ماء الوجه ، والتعرض لمذلة السؤال ، فإذا هانت عليه كرامته ، وذهب يسأل الناس الزكاة ، حرم منها عقاباً له على هذا الهوان ، وتعويداً له على الاستغناء عن الناس ، والاعتماد على الكفاح .

على أن الزكاة حق لا بد أن يصل إلى أصحابه دون أن يهينوا أنفسهم بالتعرض للأغنياء . ودون أن يتكلوا عليه فيدخلونه فى حسابهم ، ودون أن يشعر الغنى بهذا المظهر المتعالى الذى يحوج الناس إليه ، فيأتونه متعرضين لنواله.

وقد يصل الفقر بأحد من الناس إلى شدة لا تقوى إرادته على التغلب عليها ، فيضطر إلى تخفيف هذه الشدة بالاستجداء .

وفى هذا الموقف تبرز قضية أخرى هى واجب الأمة المسلمة . فإن حفظ

كرامة المسلمين واجب على الكفاية . وما يحل للأمة أن تترك من بنيها من يهوى به الفقر إلى المذلة والهوان .

إن من واجب الأمة المسلمة أن تيسر أسباب الحياة الكريمة لكل فرد من أفرادها ، ولا تتخلى عنه حتى تصل به الحال إلى الحاجة المدقعة التى تدفعه إلى السؤال . بل عليها أن تعالج مشكلة الفقر بطريق من الطرق الكريمة ، كأن تيسر العمل لمن يستطيع العمل ، أو تتخذ النظم التى ترعى العجزة وتصد عنهم غائلة الجوع ، وتوصل إليهم ما يرفع عنهم ثقل الحياة بيد عطوفة كريمة .

وقد نتج عن هذا الحكم عند الإباضية — الحكم بحرمان طالب الزكاة منها — أنك لا تجد فى المجتمع الإباضى شحاذاً . يجوب الشوارع يتعرض لأبواب المنازل أو المتاجر ليتلقى الصدقات . ولا تجد غنياً ببابه جمهور من الفقراء وهو يوزع عليهم الزكاة فى زهوا وخيلاء . وإنما تصل الزكاة إلى أصحابها دون أن يكون للفقير بها سابق علم . ودون أن يحس الغنى أنه يقدم إحساناً ، وإنما يقوم بواجب يخشى ألا يقبله الله منه ، ويرجو من رحمة الله أن تتولاه بالقبول .

وقد كان الإباضية فى جبل نفوسة يكونون هيئات تجمع الزكاة وتصرف فى مصارفها بالطرق التى لا تكون عند الفقراء عادة الانتظار ، ولا تجعل فى السنة مواسم للتجمع لأخذ الزكاة ، وهذه الهيئات التى تتولى جمع الزكاة ، وتحفظها ، وتنفق منها على من يستحقها فى تنظيم ، وكثيراً ما تضيف إلى تلك المبالغ المتحصلة من الزكاة مبالغ أخرى مما يتبرع به أصحاب الأموال ، ولا سيما فى سنوات الشدة التى قد لا تكفى فيها الزكاة لسد الخلة عند المحتاجين .

وحبذا لو أن الأمة الإسلامية عملت على مثل هذا التنظيم ، فيسرت العمل الحر الكريم للفقير ، وحرمت عليه السؤال والاستجداء ، ثم قدرت مقدار الحاجة فلم تتركها تصل بالمسلم إلى أحط دركات الإنسانية .

على أن هذه الميثات يجب أن تتكون عند الأمة المسلمة عندما لا تكون على رأسها دولة مسلمة . أما إذا كانت الدولة مسلمة ، فإن جمع الزكاة يكون من بعض حقوقها .. ورعاية الفقير وتيسير الحياة الحرة الكريمة له ، وصيانته من المهانة والذلة يكون من بعض واجباتها .

تعقيبات

ألف الأستاذ الطاهر احمد الزاوى الطرابلسى ثلاثة كتب فى التاريخ هى « جهاد الأبطال » و « الفتح العربى فى ليبيا » و « أعلام ليبيا »

وقد أتيح لى أن أطلع على هذه الكتب ، وحين أذكر أننى أقدر المجهود العظيم ، الذى بذله المؤلف فى هذه الكتب ، وأشكر له هذا الجهد ، أحب أن أقول عنها الكلمة الآتية :

حينما تقرأ كتاب « الفتح العربى فى ليبيا » تحس أن المؤلف عندما يعرض للحديث عن الإباضية يشعر بكثير من المرارة ، وهو رغم أنه عرض قضايا التاريخ فى هذا الكتاب عرضا صادقا ، ولم ينحدر ، إلى تغيير الحقائق ، ولم يجد فى مطاوىء التاريخ ما ينتقده على أولئك الناس ، سواء فى سلوكهم المدنى أو فى سلوكهم السياسى والعسكرى ، فهم لم يقدموا على أى عمل يخالف أحكام الاسلام أثناء حروبهم ، وأثناء سلامهم ، إلا أنه رغم كل ذلك ، يشعرك المؤلف — وأنت تقرأ كتابه — بأنه يحمل كراهية متأصلة لهؤلاء القوم ، وبَثُّ المؤلف لروحه فيما يكتب ، وإشباعه لكتابته بهذه الروح . حتى يحسها القارىء إحساساً واضحاً ملكة لا يتحلى بها إلا عدد قليل من كبار الكتاب .

لقد كان الإباضية كما كان غيرهم من كل الفرق يثورون على ألوان الظلم والطغيان ، الذى يقع من ولاة العباسيين الجبابرة ، أو من غيرهم ممن وصل إلى مراكز الحكم بدون أن يؤهله دينه لذلك ، وحرص المؤلف أن يسمى الثورات التى قام بها الإباضية « فتَنًا » حتى يوهم القارىء أن هؤلاء القوم يشغبون على

الدولة ، دون أن يكون لهم حق ، وهو لايطلق هذا الوصف على آلاف الثورات التى قامت للنزاع على الحكم ، والانتقام من المذنب والبرىء . وعن الحروب الطاحنه التى تبادلها عمال العباسيين فى كل المملكة الإسلامية ، ومن بينها ليبيا.

ومن العجيب أن هذا الكتاب — رغم هدوئه الظاهرى — يكاد يكون محاولة سافرة لإيقاد الفتنة بين العرب والبربر ، ودعوة صارخة لإحياء مايكاد يندثر من دعوة العنصرية البغيضة، و برغم أن الفتح كان إسلاميا قبل أن يكون عربيا ، وأن مقاومة الدين الجديد التى قام بها البربر إبان الفتح ليست أشد من الحروب التى قام بها العرب أنفسهم لمعارضة الإسلام عند الفتح ، ولا أشد من الحروب التى قام بها الفرس أو الترك أو الروم ، أو غيرهم من الشعوب عندما بلغتهم رسالة الله ، برغم أن هذه المقاومة لدين الله لم تخص بجنس من الأجناس البشرية، فإن صاحب الكتاب يحاول أن يجعلها صفة متمكنة من البربر ، ويصف هؤلاء القوم بالتشدد والإعراض عن دين الله .

ونحن لايهمنا أمر أولئك المعرضين فى قليل أو كثير ، والكفر ملة واحدة ، يجتمع عليها — فى جهنم — البربرى والعربى والفارسى ، وزملاؤهم من جميع الأجناس ...

وفى تسمية الكتاب نفسه دليل على هذه الروح التى كتب بها الأستاذ الزاوى تاريخه القيم ، وبدلا من أن يكون عنوان الكتاب : « الفتح الإسلامى فى ليبيا » صار العنوان : « الفتح العربى » ...

ولو كان الفتح عربيا فقط لما كان هنالك فرق بينه وبين الفتح الإغريقى ، أو الرومانى ، أو التترى ، أو غيرها من الأجناس ، فليس العرب باعتبارهم جنسا أكرم على الله من المغول ، أو السكسون ، أو الهنود الحمر ...

عندما افتتح الإسلام هذه البلاد ، وعمّ نور الهداية المحمدية هذه الربوع ، لم يبق لكلمة العرب والبربر مكان، فإن الله قد أبدلها اسماً آخر خيراً وأهدى ، هذا الاسم هو الكلمة التى اختارها الكتاب الكريم ، فدعا بها أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« **يا ايها الذين آمنوا** » أو تلك الكلمة الأخرى التى سماهم بها جدهم ابراهيم خليل الله عليه السلام :

« **هو سماكم المسلمين** » فلماذا نسند الفتح إلى جنس من البشر ، مع أن الفتح للإسلام ، والله يسخّر من جنده من يشاء ...

وعندما تحدث المنازعات والثورات ، لماذا لانشرح أسبابها الحقيقية ، ونعترف بالخطأ سواء كان هذا الخطأ من الدولة أومن الثائرين عليها، ثم ننسب هذه الثورات إلى القائمين بها ، لا إلى أجناسهم وعناصرهم ؟ .

قلت لقد حرص المؤلف أن يسمى حركات الإباضية بالفتنة ، وأن ينسبها إلى البربر ، حتى يجمع الإباضية فى صعيد واحد مع فرق أخرى ، يرى المؤلف أنها رقيقة الدين ، ضعيفة الإيمان .

ولكنه لم يكلف نفسه عناء تبرير أحكامه هذه عندما يسنده إلى أمة مسلمة، ولم يجد فى الواقع التاريخى ما يجعله يؤمن بأن حركات الثورة التى يقوم بها الإباضية ، كانت فتنة أو تدعو إلى الفتنة ، فإن الحكم الذى كان بيد الأمويين أولا ـ ماعدا فترة قصيرة هى خلافة عمر بن عبد العزيز ـ وبيد الدول العباسية ثانيا. كان ملكا عضوضا ، كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن خلافة رشيدة . والثورة على هذا الملك العضوض الظالم لا تعتبر

فتنة ، ثم إن ولاة هذه الدول وعمالها فى مختلف بلاد الإسلام ، لم يتقيدوا بأحكام الكتاب ، ولم يعرفوا للعدل معنى ، ولم يحترموا للناس حقا ، فكانت الأمة لا تكف عن الثورة ، ولا تقف عن الكفاح ؛ كفاح ألوان الاضطهاد والظلم والطغيان فى جميع بقاع العالم الإسلامى ، فى الجزيرة العربية ، وفى الشام ، وفى العراق ، وفى فارس وما وراءها ، وفى مصر والمغرب الإسلامى . غير أن مؤلف كتاب « الفتح العربى فى ليبيا » لا يحلو له أن يطلق كلمة الفتنة ، إلا على الثورة التى يقوم بها هؤلاء الذين يحرص أن يطلق عليهم اسم البربر ، ليجعل منهم صفا معارضا للعرب ، ويجهد أن يجعل بينهم وبين الإسلام سداً ، وأن يشعل بينهم و بين أخوتهم من العرب ناراً ...

لقد كان أكثر أولئك الذين قادوا الثورات التى قام بها الإباضية فى ليبيا من العرب ، ورغم ذلك فإن صاحب الكتاب ينسبها إلى البربر ، ويعبر عنها بالفتن .

إن الثورات فى العالم الإسلامى لم تقف يوماً واحداً منذ انحرف القائمون بالأمر عن الحكم بكتاب الله ، والسبب فى ذلك بسيط ومعقول :

كانت البشرية خاضعة لآلهة من البشر ، صابرة على طغيان الإنسان ، حتى جاء الإسلام فبعث كرامة الإنسانية فى المسلمين ، وحرم فيهم الاستكانة والذلة ، والعبودية ، ما أمكنهم دفاعها ، وشعر المسلمون بتحقيق هذه الكرامة فى عهود النبوة والخلافة الرشيدة ، فلما تولى الحكم أولئك الذين انحرفوا عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الأثرة ، وعن العدل إلى الجور ... ثار الأحرار فى كل مكان ، ولا يزالون يثورون إلى اليوم ، وإلى يوم القيامة .

وقد عجبت للمؤلف وهو يكتب فى هذا العصر الذى استيقظ فيه المسلمون وعرفوا جميع أخطاء الماضى ، وهم أحرص ما يكونون على إبعاد ذلك الشبح البغيض ، الذى فرقهم إلى أحزاب وشيع ، وملأ قلوب الناس بالبغضاء والكراهية ، وسهل عليهم الوثوب على من يخالفهم لسبب ولغير سبب ...

عجبت للمؤلف كيف يسمح لنفسه أن يكتب بهذا الأسلوب ، وبهذه الروح ، وأن يرتضى لنفسه أن يكون محيي عصبية ، فى هذا العصر الذى يجب أن تتكتل فيه الأمة ، وأن تتضامن فيه جهودها ...

لقد بذل المؤلف جهداً جباراً وهو يكتب عن وطنه الحبيب، ولكنه حرص أشد الحرص على الكتابة بهذا الأسلوب وبهذه الروح حتى فى كتابه «الأبطال» فكان يستعمل كلمة العرب والبربر بدلا من أى اسم آخر ، قد يكون أدق فى المعنى ، وأوفى بالغرض ، وإنه لغريب حقا لمؤلف فى مثل علم الأستاذ الزاوى ، واتساع ثقافته وكرهه لدواعى التفرقة والخلاف ، أن يسخر قلمه لدعوى الجاهلية التى بَرِىءَ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يحرك قضية الجنس فى الشعب الواحد ، وأن يميز بين العرب والبربر ، كأنه نسى أن الله تعالى جعل الأمة الإسلامية أمة واحدة ، وأن الإسلام يذيب الجنسيات ، ولا يحفل بالقوميات ، ولا يأبه للعناصر : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

فلماذا يحاول بعض الناس إحياء العصبية القبلية ، أو الخلافات العنصرية ، بعد أن أغنانا الله عنها بالإسلام :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » فإذا كان لعربى فضل فهو فضل الإسلام ، وإن كان لبربرى فضل فهو فضل الإسلام :

« ان اكرمكم عندالله اتقاكم » وقد حصل بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، على ما لم يحصل عليه عبد الملك والدولة الأموية من ورائه ، وهارون الرشيد والدولة العباسية من بين يديه . . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وإذا كان لبربرى أو عربى ما يؤاخذ عليه ، ويحاسب على ارتكابه أو تضييعه ، فهو سلوك المعصية ، والانفصام عن عرى الدين ، وعدم التخلق بأخلاق القرآن الكريم ، وعدم التقيد بما دعا إليه محمد عليه السلام فى الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفى الحديث .الذى هو **« ان هو الا وحيى يوحى »**(١) .

وفى السيرة العطرة التى هى التطبيق الحقيقى للإسلام ، فمن شاء أن ينصب نفسه حكما ، ويقف موقف القاضى ، يتحكم فى التاريخ ، ويتحدث عن أقدار الرجال . فليجعل هذا الميزان نصب عينيه ، ليزن أعمال الناس إن كان يستطيع ، وعند ربك الميزان الحق ، والحساب الدقيق .

هذا تعليق قصير على كتاب ضخم بذل فيه المؤلف من الجهد والوقت شيئاً غير قليل ، وإننا حين نقول قولة الحق فى مآخذنا على هذا المجهود العظيم. لا ننسى أبداً . أن المؤلف قدم للوطن خدمة سوف تشكرها له الأجيال القادمة ، ولا يمنعنا هذا الثناء عليه ، والتقدير له ، أن نشير إلى تلك الهفوات ؛ وأى مؤلف لم تقع له هنات وتوجه إليه انتقادات ، وتحصى له غلطات !

وإذا أنسأ الله فى الأجل ، ووفق فى العمل ، فسوف أحاول أن أناقش الكتاب فيما ظهر لى أن المؤلف أخطأ فيه التوفيق ، وحاد فيه عن الصواب .

---

(١) والنجم : ٤

إعتصام الإباضية بالدين

لقد أشرت إلى بعض الأصول العملية التى يمتاز بها الإباضية ، ويعتمدونها فى مذهبهم ، ويحسن بى الآن أن أعود إلى تفصيل حياة هذا المذهب فى الأمة الإسلامية ، وإلى أثره فى مجرى تاريخها ، وإلى مسلك أتباعه للأصول التى أصلوها ، والقواعد التى دونوها ، والمبادىء التى ساروا عليها فى جميع عصور التاريخ ، طبقاً لمسالك الدين التى سبق عنها الحديث .

وليس من الدعوى أو التبجح أن أقول إن الإباضية من أولى الفرق الإسلامية التى تحرص أن لا يتخطىء أفرادها الحدود التى رسمها لهم الدين ، وأن يكون المسلم منها صورة صحيحة حقيقية لما رسمه الإسلام ، وأوضحته سيرة السلف الصالحين ، وليس معنى هذا أنه لا تقع معصية من إباضى ، فإن هذا ليس من طبع البشر ، وإنما المقصود أنه عندما يرتكب أحدهم معصية ، فإما أن تكون مما يعلمه الناس ، أو مما يلم به الفرد مستتراً حين يغلبه الشيطان . فإذا كان الخطأ من النوع الأول ، بادر المسلمون إلى إعلان البراءة منه ، وقطع التعامل معه ، والجفوة عليه حتى من أقاربه وأهله ، حتى يعترف بما ارتكب على الأشهاد ، ويعلن توبته إلى ربه ورجوعه إليه ، ويعاهد الله ألا يعود ، وهكذا يرجع العاصى إلى حظيرة الأمة ، وتطهر من أرجاس المعصية ، ليعاود الكفاح فى سبيل الله ، والعمل الخير وقد تطهر والدعوة إليه ويحيا حياة نظيفة فى مجتمع نظيف .

أما إذا كان من القسم الثانى أى من الأخطاء التى يلم بها الإنسان مستتراً . فإن ذلك يجعله يسير مع الركب فى الظاهر ، على أن ضميره لا يكف عن التوبيخ وهو يعتقد أنه ليس فيما يعصى الله به صغير كما قال ترجمان القرآن رضى الله عنه ،

وأن من ورد على ربه بهذه الحالة سيكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً ، وفى ذلك زجر له عما ارتكب ، وداع إلى الإقلاع عما ألم به من وساوس الشيطان ، والذى يدعو أتباع هذا المذهب إلى هذا التمسك الحريص ، أفراداً وجماعات ، إنما هو بعض القواعد التى يمتاز بها هذا المذهب عن غيره من المذاهب ، كوجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، على الفرد المسلم ، والمجتمع الإسلامى ، وتطبيق ذلك فى مسألة الولاية ، والبراءة ، والوقوف ، وكالقاعدة الأخرى الهامة التى تجعل الإيمان لا يتم إلا بالعمل ، فلا يجد العاصى مستنداً يستند عليه بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس ، ولا يحق له أن يطمع فى دخول الجنة بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دون أن يقرن ذلك بالعمل الصالح . كما لا يحق له أن يأمل فى الخروج من العذاب الأليم وقد قدم على ربه ، مرتكساً فى عمله ، مرتهنا بذنبه :

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيآته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ... « لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد » .

وبناء على هذه الأسس التى يراها الإباضية من قواعد الدين ، كانت أعمالهم صوراً حقيقية لمبادئهم وعقائدهم .

وقد اشتهروا بذلك على مدى التاريخ ، وعرفوا به . فكانوا فى مجتمعهم وأفرادهم أمثلة للمؤمنين الذين يحافظون على دين الله فى واجباته وآدابه ، وجميع الأخلاق التى دعا إليها ، ويبتعدون عن كل ما نهى الإسلام عنه ، أو كرهه ؛ من قول وعمل ، يسارعون إلى الخيرات ويبتعدون عن المحرمات ، ويقفون عند الشبهات ، مصداقا لقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

« كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع فى الحرام » . وإذا كانت

هذه الصورة الصادقة لما عليه الإباضية منذ أول التاريخ إلى اليوم ، فإنه من الحق المؤلم أن أعترف أن الإباضية فى ليبيا بدأوا ينحرفون من حيث العمل عن هذا السبيل القويم ، الذى سار عليه أسلافهم ، وحافظ عليه أجدادهم ، حفاظ المؤمنين المخلصين لدين الله .

بدأ هذا الانحراف عن السبيل القويم منذ اشتعلت نار الفتنة بين المسلمين فى حرب إيطاليا بسبب ما دسته من مكائد بين الأخوة ، وتسليط بعضهم على بعض ، وإمدادها لكل فريق بالمال والسلاح سراً وعلانية ، ليشتد النزاع ، وتنشق العصا ، وتفترق الأمة على نفسها ، فيهون عليها احتلال البلاد ، وامتلاك العباد .

ومنذ ذلك الحين ظهر فى المجتمع الإباضى من يرتكب المعصية جهاراً ، ويخون أمانة الله نهاراً ، فيشرب الخمر التى حرم الله ، أو يغش فى البيع والشراء ليكتسب مالا ، أو يستهين بحدود الله ، ليجامل أعداء الله . بل أدهى من ذلك وأمر ، أنه وجد فيهم من يترك الصلاة ، أو يمتنع عن الزكاة ، فيخل بأحدى الواجبات ، وهو يدعى الإسلام ، وينتمى فى زعمه إلى أتباع عبد الله ابن إباض . فإذا جئت لتنهاه عن هذا المنكر أجابك فى غير مبالاة أن مذهب الإباضية مذهب شديد ، وأنه سمع أن غيره من المذاهب لا يغلقون أبواب الجنة فى أوجه العصاة ، كأنما أصبحت أبواب الجنة وأبواب الجحيم فى أيدى الناس ، يغلقونها متى شاءوا ، ويفتحونها لمن شاؤوا .

فى هذا الحين الذى أذكر فيه هذه الحقائق المؤسفة المؤلمة وأنا ألجأ إليه تعالى أن يهدى قومى فإنهم لا يعلمون ، أذكرهم بكل فخر واعتزاز: أن علماء الإسلام اليوم يدعون إلى دين الله على روح هذا المذهب ؛ فكأنما يستقون من أصوله

وقواعده ؛ ولا غرابة فى كل ذلك ، فإن كل مسلم يغار على دينه ، ويدعو إلى كتاب ربه — يجد نفسه قريباً من هذا المذهب ، لأنه يستقى من النبع الصافى الذى استقى منه وحافظ عليه .

ولو أن المسلمين فى جميع الأقطار حرصوا أن يكونوا صوراً حية للإسلام كما كان الإباضية ، لما وجد أعداؤهم بينهم مدخلا ، ولا بين صفوفهم طريقا .

إن الاستعمار والظلم والطغيان لم يستطع أن يتغلب على المسلمين إلا حينما بذر بينهم فتنة المال والمتعة الحرام ، وأشاع بينهم الفاحشة والمنكر ، وسهل عليهم الإعراض عن حكم الله إلى حكم الإنسان ، وقطع العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فأعطى للفرد حق الحرية فى ارتكاب مايشاء مما حرم الله .

ولو أن المجتمع بقى مهيمنا على سلوك الفرد ، فلا يستطيع إنسان يدعى الإسلام أن يجد ماخوراً ، أو يرتكب زنى ، ولا يستطيع مسلم أن يجد فى بلد مسلم حانة ، أو يشرب خمراً .

ولا يستطيع إنسان يدعى الإسلام أن يجد مقمرة ، أو يلعب قماراً ، ولا يستطيع مسلم فى مجتمع إسلامى أن يجد ما يساعده على ارتكاب محرم ، أو يخالف سيرة من سير المسلمين ، أو خلقا من أخلاق المؤمنين ، لأن المجتمع سوف يقف له بالمرصاد ، ويحاسبه على ماترك أو قدم ، حتى يعود إلى الطريق الأمثل ، والصراط الأقوم ، والسبيل السوى .

لو أن المجتمع الإسلامى بقى مهيمناً على سلوك الفرد كما كان ذلك فى صدر الإسلام ، وكما بقى ذلك عند الإباضية إلى اليوم ، لما شذ المسلمون عن الإسلام . ولما بعدوا عن كتاب الله ، ولما غاب عليهم عدو لايرحم ، أفسد فيهم

الدين والخلق ، قبل أن يستغلهم فى العمل والمال ، و يأخذ منهم الجهد والثروة ، ويقضى فيهم بحكم الجبروت والقوة .

و إنه لمن الابتعاد عن دين الله ، ومن المجافاة لكتاب الله ، ومن التنكب عن هدى رسول الله صلى عليه وسلم أن تجىء اليوم إلى بلد إسلامى تحكمه — فيما تزعم — دولة مسلمة ، فترى دور البغاء مفتحة لطلاب الشهوة ، وعبيد الشيطان ، لأن دولا من الغرب ترى أن فى ذلك مصلحة .

وترى حانات يروج فيها البيع والشراء ، وتزدحم الزبائن على ارتشاف ماحرمه الله ، وأمر نبيه عليه السلام بكسر دنانه ؛ لتساير الدولة المسلمة أعداء الله وتكسب منهم — فى زعمها — مالا حراماً .

وترى دوراً مشيدة الأركان ، عظيمة البنيان ، مفروشة بأرقى ما وصل إليه ذوق الإنسان ، تهدر فيها قيمة الكسب ، وتضيع فيها ثمرة الجهد ، لتلتهم المائدة الخضراء المال الذى هو من حق الأمة ، اختلسه منها الأبناء العاقون ، والحكام الظالمون ، والعملاء المستغلون .

إن هذه الصور وآلافاً من هذه الصور التى تتراءى كل يوم فى كل بلد من بلاد الإسلام ، يجب أن تزول ، لو أن المجتمع الإسلامى بقى مهيمناً على الفرد ، ومهيمناً على الدولة التى يسير بها أفراد ، لأن هذه الموبقات التى أشاعها الاستعمار فى بلاد الإسلام ، ليحول بين المسلمين والعمل بعقيدتهم الصافية ، وخلقهم الطاهر السليم ، هى الأدواء التى فتكت بالشباب المسلم .

فهانت عليه كرامة الرجولة ، وأذلته الشهوة المحرمة ، فضاع عرضه وحيويته بين بيوت الدعارة ، وتسكع بين الحانات يشرب الخمر ، ويقرع الكاس

بالـكأس ، حتى ضاع وقته ، وضاع عقله ، ثم حاول أن يكتسب المال من أيسر طريق ، فولج دور القمار ، فسرق القمار ماله وأعصابه وسلامة تفكيره ، وخرج إلى الشارع حطاماً ليس له مال ولا عرض ولا دين .

وقد سلم المجتمع الإباضي من هذه الأدواء وأشباهها على مدى التاريخ ، ما عدا الأربعين سنة التي استثنيناها فيما سبق من تاريخ ليبيا فقط ، لأن المجتمع الإباضي بقي مسيطراً على الفرد ، ولأن نظام العزابة كما أشرت إليه في فصل مسالك الدين في دور الكتمان ، بقي يوجه المسلمين ويحاسبهم على أعمالهم ، ويحدد لهم الاتجاه الذي بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تغلب المستعمرون على ليبيا وقضوا على نظام العزابة في البلاد ، وحالوا بين العلماء وبين القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنعوا إعلان الولاية والبراءة ممن يستحقها ، بدأ بعض الناس يستمرئون طعم المعصية ، ويتشبهون بمن جاورهم ممن لا يخاف في الله إلاً ولا ذمة . ويرمون بأبصارهم إلى الحياة التي يحياها العابثون من أعداء الله وأعداء الإسلام .

على أن هذه النكبة التي أصابت الإباضية كما أصابت غيرهم من المسلمين ، كانت مقصورة على الإباضية في ليبيا ، أما إخوانهم في بقية البلاد[1] فقد

---

(١) أستطيع أن أضرب مثلا لذلك بالإباضية في الجزائر ، وقد بقي هذا النظام يطبق عندهم إلى الآن ، ولم تستطع فرنسا المستعمرة بكل مالها من وسائل الفساد والقهر أن تنال منهم غير قسط من المال يدفعونه إليها جملة لا تفصيلا . أما نظام السيادة والحكم والإشراف على الخلق والدين والتعليم والمجتمع ، فقد كان لنظام العزابة ، وقد نتج عن ذلك أن كانت حياتهم حياة تشرف الأمة المسلمة ، حتى في حالة الكتمان ، عندما تكون مغلوبة على أمرها سياسيا . والإيمان الحق قوة في القلب ، وقوة في الخلق وقوة في السلوك تفرض عظمة الشخصية . وتستدعي الاحترام . حتى على الحديد والنار . وأصحاب الحديد والنار .

استمرت حياتهم كما كانت عليه زمن السلف الصالحين ، لا تؤثر عليهم خطة استعمار ، ولا يغلب عليهم انحلال الجوار ، ولا يجد الشر إلى بلدهم سبيلا ، ولا تعرف المعصية إليهم طريقا . ولا يفر الفرد بعمله عن حكم المجتمع الذى يسهر على الدين ، وعلى الخلق ، وعلى العمل .

والآن ، وقد ذهب الاستعمار ، وتحرر منه العالم ، فلعل الإباضية فى ليبيا يرجعون إلى سيرة السلف التى يعتز بها الإسلام ، ولعل المسلمين يعودون إلى هدى محمد ، معرضين عن زخرف القول من عبيد الدنيا .

ولعل الدولة — وهى مسلمة — تلغى القوانين التى وضعها البشر لتعمل بالقانون الذى أنزلته السماء ، وتعرض عن مسايرة أعداء الله ، لله . وتنظف البلد المسلم من أسباب المعصية ، لتنظف أخلاق الشباب . وأنه لأهون على المؤمن أن يغضب كنيدى وخروشوف ونهرو وابن غريون وإبليس وجمع أتباعهم من أن يغضب الله . وقد أغضب محمد صلى الله عليه وسلم أبا جهل ، وكسرى ، وقيصر وغيرهم ، ليرضى الله ... ولنا فى رسول الله أسوة حسنة !!

الإباضية فى قيادة الامة

قلت فى الفصل السابق : إنه يحسن بى الآن أن أعود إلى تفصيل حياة هذا المذهب فى الأمة الإسلامية ، وأثره فى مجرى تاريخها الحافل ، و إلى سيرة أتباعه أفراداً ومجتمعاً .

وقد قلت إن المجتمع الإباضى — بناء على قواعد مذهبه كوجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ووجوب الولاية ، والبراءة ؛ للأفراد ، والجماعات ؛ وعدم تمام الإيمان إلا بالعمل الصالح ، الذى يدعو إليه الإسلام ، وأنه لا أمل للعاصى — الذى يموت على معصيته — فى رحمة الله .

إن المجتمع الإباضى بناء على هذه القواعد ، كان صورة صحيحة للمجتمع المسلم النظيف ؛ طهارة فى العقيدة من الزيغ والبدعة ، وطهارة فى العمل من أدران المعصية ، وطهارة فى الخلق بالتحلى بما تحلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وندب إليه وتخلق به المؤمنون الصادقون فى كل زمان .

وقد ظلمت الطوائف الإسلامية الإباضية مرتين ، ظلمتهم حين حشرهم بعض المؤرخين المغرضين فى الخوارج — وهم أبعد الناس عن الخوارج — فصدقت تلك الطوائف هذه الدعوى من المؤرخين المغرضين .

وظلمتهم مرة أخرى ، حين رضيت بهذا الحكم على طائفة من أصدق المؤمنين ، دون أن ترجع إلى التحقيق فى قواعد هذا المذهب ومستنداتها من الكتاب والسنة ، والتحقيق فى مدى تطبيق اتباع هذا المذهب لقواعد الإسلام وأخلاق الإسلام ، ودعوة الإسلام .

ولو رجعت تلك الطوائف إلى التحقيق فى هاتين الناحيتين : ناحية العقيدة ومستنداتها ، وناحية العمل وتطبيقه ، لراجعت نفسها وغيرت حكمها ، وتبين لها وجه من الصواب والحق لم يبد لها فى أول الأمر .

وقد حاول بعض العباقرة فى مختلف العصور أن يتخذ هـذه الخطوة فاستبان الرشد ، وظهر له الحق ، ولـكنه أحجم عن مواجهة الرأى العام الذى يثق فيه ، بما رأى وظهر له ، فاتخذ طريقاً وسطاً ، وعبر عنه بالجملة المشهورة التى تناقلتها كتب التاريخ : « الإباضية أقرب الفرق إلى أهل السنة » .

أما أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فقد كان موقفه أصرح من ذلك ، وقد وعد الجماعة أن يحيي كل يوم سنة ويميت بدعة .

وكان من العباقرة الذين حاولوا هذه المحاولة مالك بن أنس ، وعبد الملك ابن مروان ، وابن حزم الظاهرى ، والشهرستانى[1] والطاهر الزاوى — وحسب الزاوى فخراً أن يذكر مع هؤلاء العباقرة الأعلام — وغيرهم من الذين اتسعت آفاقهم للفهم والبحث والتحقيق ، ولم يقتصروا على إشاعة كاذبة ، أو دعوى مغرضة ، أو قول ذهب إليه ناس دون أن يعرفوا شيئاً من كتب أصحاب هذا المذهب ، ويطلعوا على سلوكهم وسيرهم الاطلاع الـكافى ، الذى يعطى الصورة الحقيقية لإجراء الحـكم .

وكما كان الفرد العادى من الإباضية صورة صحيحة للمسلم الذى يدعو إليه الإسلام ، وكان المجتمع الإباضى صورة صحيحة للمجتمع المسلم الذى يقيم شعائر الله ، ويحافظ على دين الله ، ويعمل جاهداً لتطبيق أحكام الله ، حتى

---

(١) راجع القول المتين للشماخى . والرد على العقبى للقطب . واللمعة المرضية للسالمى .

فى حالة الكتمان ، كذلك كان من تقلد أمر المسلمين من الإباضية صورة للمسلم المخلص ، الذى وثق به المسلمون ، فأسندوا إليه أمور دينهم ودنياهم ، فأكبر هذه الثقة من الأمة ، وحافظ على هذه الأمانة من الله .

ولما كنت لا أقصد أن أتحدث عن التاريخ السياسى للإباضية — ولو أن السياسة لا تفترق عن الدين فى الإسلام — فقد يكون مما يتم به هذا البحث أن ألخص الحركة السياسية للإباضية بأشد ما يمكن من الاختصار .

انتشر المذهب الإباضى فى جزيرة العرب وما جاورها ، كالعراق ومصر ، وفى شمال أفريقيا ، قبل أن تتكون المذاهب الأخرى ، وقد استقر الإباضية على كثير من القواعد والآراء فى أصول الدين ، قبل أن تنشأ مذاهب الأشاعرة ، وقبل أن ينفصل واصل بن عطاء عن أستاذه الحسن البصرى ، فتكون من ذلك فرقة المعتزلة ، وكل ما كان موجوداً حينئذ من الطوائف الإسلامية ، إنما هم بعض فرق الشيعة ، و بعض فرق الخوارج ، وأهل السنة والجماعة . ولست أقصد بأهل السنة والجماعة فى هذا الفصل فرق الأشاعرة ، فإن إطلاق هذه التسمية عليهم خطأ تاريخى ، جاء متأخراً . و إنما كان يطلق لفظ السنية والجماعة على معاوية بن أبى سفيان وأتباعه . لأنهم أنكروا إمامة على بن أبى طالب ، وجعلوا سبه على المنابر ولعنه سنة متبعة ، فسموا من وافقهم أهل السنة والجماعة[1] .

قال المسعودى : « إن أصحاب معاوية أرتقى بهم الأمر فى طاعته إلى أن جعلوا لعن على سنة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير ، يلعنه على المنابر » .

---

(١) راجع القول المتين للشماخى .

وقال الحاكم : « وإنما غلب عليهم إسم السنية ، لأن معاوية لما أمر بلعن على بن أبى طالب ، زعم أنه سنة، فاستحق هذا الإسم كل من يرى إمامة معاوية حتى قتل « أى على » واستقر الأمر لمعاوية ، وانقاد إليه الجميع ، فزادوا إسم الجماعة على السنة ، فتسموا بها » .

وقال المنذرى فى رسالته « الصراط المستقيم » : —

« وإنما تركوا ذلك الآن ، لأن عمر بن عبد العزيز كان رجلا مائلا إلى مذهب المصوبين لإمامة على ، المانعين من نكثها ، وأحسب أنى وجدت فى بعض الكتب أنه كان دعا من كان فى زمانه من الإباضية إليه ، فعاهدهم على أن يغير كل يوم منكراً من منا كر هؤلاء السنية ، فحينئذ أنكر عليهم شيئاً بعد شىء حتى أنكر عليهم — لأنه لم يكن أحد فى تلك الأزمنة ينكر عليهم منا كرهم إلا الإباضية — لعنهم لعلى فكفوا عنه خوفاً منه ، لعلمهم لمخالفته مذهبهم ذلك ، ولقوة سلطانه عليهم » انتهى .

ومن هذا يتضح أن كلمة « أهل السنة والجماعة » لا تطلق على مذهب دينى ، وإنما كانت تطلق على مذهب سياسى ، يدعو إليه بنو أمية ، ليستخلصوا الخلافة من بنى هاشم ، وإن هذا المذهب الذى أطلق على نفسه أحب الأسماء إلى المسلمين قد تطرف إلى حد لم يصل إليه أحد فيما أعلم ، مما وصلت إليه يدى من أحداث التاريخ : تاريخ السياسة أو تاريخ العقيدة ، فيجعل أتباع مذهب مهما كان متطرفاً سب خصومهم ولعنهم سنة متبعة فى كل اجتماع .

قلت إن الإباضية انتشروا فى أكثر بلاد الإسلام قبل أن تتكون كثير من الطوائف الإسلامية الأخرى ، كفرق الأشاعرة والمعتزلة وغيرها ، وبقطع

النظر عن المده القصيرة التى قام فيها الإمام عبد الله بن إباض بأعمال عسكرية ، لمحاربة طغيان الأمويين ، و بقطع النظر عن المدة التى بو يع فيها الإمام عبد الله ابن يحيى طالب الحق ، فطهر الحرمين الشريفين ، من عبث العابثين ، أقول إنه بقطع النظر عن هذه الحركات ، فقد قامت للإباضية دول مستقلة فى أنحاء البلاد الإسلامية . قامت للاباضية دول مستقلة فى عمان . وتعاقبت على الحكم فيها إلى العصر الحاضر ، وقد بلغت من القوة فى بعض عصور التاريخ أن كونت أسطولا يسيطر على البحار ، ويتحدى أقوى دولتين فى العالم : أسبانيا والبرتغال فى ذلك الحين . ومن أراد أن يستقصى ذلك ، ويعرف ما كانت عليه هذه الأمة المسلمة ، من مجد وعظمة ، عندما كانت أوربا تغط فى نوم عميق ، وكانت بقية الأمة الإسلامية رازحة تحت طغيان جبابرة الحكم ، وعبدة المال ، من أراد أن يعرف ذلك ، وأكثر من ذلك ، فليقرأ تحفة الأعيان للعلامة السالمى ، وليطلع على ما كتبه أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، وقد يجد صوراً من ذلك ، فى إحدى حلقات هذا الكتاب . حلقة « الإباضية فى الجزيرة العربية » .

أما فى المغرب الإسلامى وأقصد بالمغرب الإسلامى البلاد الواقعة بين الحدود المصرية والمحيط الأطلسى ، فقد قامت فيه أيضاً دول للإباضية كانت أمثلة رائعة لما يجب أن تكون عليه دولة مسلمة تحكم بكتاب الله ، وتتبع هدى رسول الله ، وقد بدأت حركة مكافحة الظلم ، ظلم الولاة العباسيين فى ليبيا عندما كان هؤلاء الولاة ينحرفون عن أحكام القرآن ، وتغرهم الحياة الدنيا فيتجبرون ويظلمون ، وتغرهم سطوة الجاه وسلطة الحكومة فلا يحسبون للشعوب قيمة ، ولا يقيمون للعدل حساباً ، ولا يذعنون لما يفرضه الحق على الحاكم والمحكوم . فثار الإباضية على الظلم ، وبايعوا بالإمامة الحارث بن تليد المرادى ، ثم أبا الخطاب

عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، ثم أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن حاتم الملزوزى ، وقد كان مركز هذه الحركة هو الجزء الشرقى من المغرب الإسلامى ، أى البلاد التى تمتد ما بين سرت والقيروان .

وسوف نعرض صوراً رائعة من سيرة هؤلاء الأئمة العظام فى إحدى حلقات هذا الكتاب . حلقة « الإباضية فى ليبيا » .

وعندما تضافرت جهود الظالمين للقضاء على هذه الحركة الثورية التى ترمى إلى إرجاع الحكم لكتاب الله وسنة رسوله ، وحالوا دونها ودون القيام بما آمنت به ودعت إليه .

انبعثت هذه الحركة نفسها فى الجانب الغربى من المغرب الإسلامى ، فتكونت الدولة الرستمية فى تاهرت ، وتعاقب عليها الأئمة : عبد الرحمن ، عبد الوهاب ، أفلح ، أبو بكر ، أبو اليقظان ، أبو حاتم ، وحقق أولئك الأئمة العظام ما يطلب من ولاة أمر المسلمين . . وأحاديثهم وأخبارهم منشورة فى كتب التاريخ .

وسوف نستعرض بعض تلك الصور الرائعة فى إحدى حلقات هذا الكتاب : حلقة « الإباضية فى الجزائر » .

راجعت ما وصلت إليه يدى من كتب التاريخ ، سواء كانت من كتب أهل المذهب أنفسهم ، أو من غيرهم من الفرق الإسلامية فما وجدت فى سيرتهم إلا ما يشرف فى جميع أدوار التاريخ .

إنك لتطالع حروباً طاحنة ومعارك حامية . وانتصاراً أو انهزاماً ، وإنك

لتجد فى كل ذلك عفة كالتى تعرفها عند الخلفاء الراشدين ، احترام لأفراد الشعوب المسالمين ؛ فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وعدل فى الجنود المحاربين : قتل عند ساحات الوغى ، ولكن لا اتباع لمدبر ، ولا إجهاز على جريح ، ولا تعدى على أعراض ، ولا استحلال لأموال الموحدين مهما كانت مذاهبهم . وسماح وعفو وعدل عند نهاية الحرب ، لم يعرفوا الانتقام بعد الانتصار ، فلا مثلة ولا قطع رءوس لترسل من بلد إلى بلد للتشفى والانتقام ، وإظهار البطش والجبروت . حرصوا على أن يقفوا حيث وقف بهم الإسلام ، وأن يجعلوا حكم الله وسيرة نبيه ووصايا الخلفاء الراشدين ، مناراً به يهتدون ، وإليه يرجعون .

كلمة قصيرة

لست أرمى من كتابة هذه الفصول إلى الكشف عن الناحية السياسية للمذهب الإباضى ، والعناية به عناية خاصة ، فإن الحركة السياسية فى نظرى أقل من الجوانب الأخرى ، ولذلك فأنا أتحدث عنها كظواهر ، وأعراض لتطبيق المبادىء تطبيقاً صحيحاً سليما فى حياة الإباضـــــية ، حياتهم العملية، وأبين بها الفرق بين الفرق التى يكون مسلكها صورة تطبيقية لعقائدها ومبادئها . والفرق التى ترى بونا شائعاً بين مسلكها وبين دعاويها فى اتباع الإسلام، والعمل بأحكامه .

ويهمنى فى هذه المباحث بصورة خاصة أن أتحدث عن التسلسل العلمى ، لحملة هذا المذهب . وأن أكشف عن الصور الرائعة ، من السيرة الرشيدة ، التى كان يسلكها أتباعه فى مختلف العصور والأزمنة .

وفى أحوال الظهور والكتمان وما بينهما . وعن الاستمساك المتين بالإسلام وأحكام الإسلام ، رغم تراكم الفتن ، وتزاحم المحن ، واضطراب الأمن .

وعن حقيقة الاعتصام بالله واحتقار المخلوق مهما بلغ من القوة والبطش والطغيان .

وعن الإعراض عن زخارف الدنيا ، رغبة فيما عند الله .

وأن أعرض على القارىء الكريم : حياة حافلة بما يدعو إليه الإيمان بالله.

من مثل ، وأخلاق ، وأعمال ، مخافة لله وفى الله ، لا حساب فيها لمخلوق ، وجهاد لله ، وفى سبيل الله ، لا ذكر لها فى الدنيا .

وعمل صالح مستمر للبناء الذى يشيده الإسلام ، ويرفع قواعده الكتاب الكريم ، ويحافظ عليه محمد صلى الله عليه وسلم .

وسوف يلحظ القارىء الكريم هذه الحياة الحافلة بالخير ، والاهتداء ، والسيرة الرشيدة والعمل الصالح فى التراجم القصيرة التى أعرضها فى الصفحات الآتيـة .

جابر بن زيد (1)

ولد أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (2) سنة 21 للهجرة ، وتوفى سنة 96 منها . وهو وإن كان عمانياً إلا أنه عاش في العراق ، فقد أمضى أكثر عمره المبارك ، في البصرة ، إحدى عواصم العراق العلمية في ذلك الحين .

عاش في البصرة — كما عاش أكثر زملائه من كبار التابعين — ينشر العلم في المساجد والجوامع ، ويبث الخلق الحميد بين الناس ، ويدعو إلى التمسك المتين بالدين القويم ، والمحافظة على أصوله وفروعه . ويفتي في المشاكل التي تعرض للناس ، حتى قال إياس بن معاوية : « لقد رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد » .

وقال ترجمان القرآن — عبد الله بن العباس رضي الله عنه : « عجباً لأهل العراق ، كيف يحتاجون إلينا وفيهم جابر بن زيد » ولما توفى قال أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » : « اليوم مات أعلم من على ظهر الأرض » ودخل ثابت البناني على جابر ابن زيد وقد حضرته الوفاة فقال له : هل تشتهي شيئاً ؟ قال : أشتهي أن ألقى الحسن البصري ، وكان الحسن مستخفياً خوفاً من طغيان الأمويين وعمالهم ، فذهب ثابت إلى الحسن وكان يعرف مقره وجاء به إلى صديقه الحميم المحتضر ، وتحدث التابعي المسلم الكبير ،

---

(1) راجع السير للشماخي . وشرح مقدمة التوحيد للقطب

(2) اختلفت الروايات في تاريخ مولد جابر وتاريخ وفاته مابين 18 إلى 96 ، و22 إلى 93 .

إلى التابعى المسلم الكبير ، وتواصيا وهما يتأهبان إلى فراق فى الدنيا طويل ، ويأملان لقاء فى الآخرة سعيد .

وتحدث الحسن عن زميله ورفيقه وصديقه الذى رحل عن الدنيا واستقبل الآخرة فقال : « هذا والله الفقيه العالم » .

وقد شهد له بالعلم والفقه والدين وسماحة الخلق غير هؤلاء كثير .. كثير من الصحابة وكثير من التابعين وكثير من تابع التابعين . غير أننى أرى شهادة عبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك ، وعائشة أم المؤمنين وهم من أخص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحقائق الدين وأسراره ، وأعلمهم بمعانى القرآن الكريم ومواقع السنة ، وأكثرهم إلماماً بسيرته العطرة وهديه القويم ، يضاف إليها شهادة الحسن البصرى سيد التابعين وأقربهم من جابر، وأعرفهم به

إن هذه الشهادة التى يعطيها أخص أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ويختمها سيد التابعين : تعتبر أعظم إجازة معتمدة تعطى عن درجة علمية فى ذلك الحين .

أخذ جابر العلم عن عبدالله بن عباس، وعائشة أم المؤمنين، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وغيرهم من الصحابة .

قال جابر : أدركت سبعين بدرياً فحويت ما عندهم من العلم إلا البحر ، وكان يقصد بالبحر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . وإذا استطاع هذا الإمام العظيم بما أوتى من جهد وذكاء وصبر أن يجمع علم سبعين بدرياً، فإنه ليس غريبا أن يكون جمع من علم بقية الصحابة رضوان الله عليهم ما لا يبلغه الحصر ، لكثرة عددهم ، وسهولة الأخذ عنهم .

وقد تلقى عنه خَلقٌ كثير، منهم قتادة شيخ البخارى وأيوب، وابن دينار

وضمام بن السايب ، وحيان الأعرج ، وأبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة . . . عاش جابر كما عاش غيره من كبار التابعين ، يجاهد لإحياء سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالقول والعمل ، ويدعو سراً وعلناً إلى أن الأمة الإسلاميه ، يجب أن تحافظ على شريعة الله لتكون خير أمة أخرجت للناس ، وكان يندد فى دروسه ومجتمعاته ، بأولئـك الذين انحرفوا عن دين الله ، فحكموا أهواءهم ، وأرضوا شهواتهم ، واتبعوا سبيل الشيطان ، وكان يبارك الثورة التى تطيح بالظلم ،وتنزع الحـكم من أيدى الخونة ، لتضعه فى أيدى أمينة ، حريصة على قداسة أحكام الله.

وكان الإباضية يصدرون عن رأيه فى جميع أمورهم ، كما كان يصدر عنه كثير من غيرهم من المسلمين ، وليس جابر هو التابعى الوحيد الذى كان هـذا رأى أكثر علماء الصحابة والتابعين فى ذلك الحين .

ولذلك فقد كان طغيان الأمويين وعمالهم يلاحق أولئك العلماء الدعاة فى كل مكان ، وكثيراً ما يفر أولئك العلماء الهداة فيستخفون عن الظلم ويفرون بدينهم عن الجبروت . وقد يلحق بعضهم كثير من الأذى ، فيتحمله صابراً فى سبيل الله .

وكما كان جابر بطلاً من أبطال الإسلام — يحرص على تعريف المسلمين بدينهم ، وبالعزة والـكرامة التى يريدها الله لهم ، ويكافح فى صبر وعزيمة ، طغيان الظالمين ، وأضاليل المبتدعين — كان بطلا فى ترويض نفسه ، وحملها على سلوك الصراط السوى ، لا تغره شهرة العلم ، ولا تخدعه ثقة الناس به ، ولا تزدهيه نشوة الفوز فى الانتصار على الخصوم .

رأى يوماً أحد طلابه يكتب شيئاً أثناء الدرس فنهاه أن يكتب شيئاً غير آية محـكمة ، أو سنة متبعة ، أما رأيه فلا عبرة به ، لأنه قد يجد فى المساء

حجة أقوى من التى يستند إليها فى الصباح ، فيرجع عنه إلى ما ثبت بالدليل الأقوى ، ويذهب الطالب بما كتب ينشر الباطل فى الناس .

كان للحجاج كاتب يدعى يزيد بن مسلم . وكان يحب جابراً كل الحب ، ويعجب به كل الإعجاب ، وأخذت ظروف الحياة العادية جابراً ، إلى زيارة هذا الكاتب المعجب ، وكأن الكاتب أراد أن يخدم كلا من رئيسه وصديقه، فهيأ لهما فرصة اقاء دون أن يشعرهما . واستمع الحجاج إلى الإمام العظيم ، فأعجب بعلمه وخلقه ، فعرض عايه القضاء قائلا له : « لا ينبغى أن تؤثر بك أحداً ، نجعلك قاضيا للسلمين » وكانت هذه هى الفرصة التى يرمى إليها الكاتب الصديق ، ولكن جابراً لم يكن طالب دنيا . فقال : « أنا أضعف عن ذلك » قال الحجاج ، وما بلغ من ضعفك ؟

قال : يقع بين المرأة وخادمها شر ، فما أحسن أن أصلح بينهما . فقال الحجاج : إن هذا لهو الضعف . .

وهكذا تخلص الإمام الأكبر من هذا العرض الكريم الذى كان حرياً أن تطير له نفس غيره فرحاً ومسرة .

ويظهر أن الكاتب الصديق لم يفهم مقصد الإمام من هذا التخلص ، وكان يريد أن يستغل هذه الفرصة لفائدة الإمام ، وأن يخدمه خدمة دائمة ، ولذلك قال للحجاج ؛ « ههنا خصلة تخف عن الشيخ وفيها عون المسلمين ، تجعله فى أعوان صاحب الديوان بالبصرة ، فوافق الحجاج على الاقتراح ، ولكن العالم الزاهد لم يوافق فقال ليزيد : ما صنعت شيئاً ، أترانى أكون عونا لصاحب الديوان ؟ .

وهكذا لم يقبل الإمام العرض الثانى الذى تقدم به هـذا المعجب المحب ، وتنزه أن يشتغل فى وظائف حكومة ظالمـة ، وهل يصح أن يعين جابر أولئك الظلمة ، وهو ينذر كل يوم بأعمالهم ، ويطالبهم بآداء الحقوق إلى أهلها ، وتسليم الأموال والعطايا إلى أصحابها ، وإسناد الوظائف إلى الأمناء الحراص الذين يتقون الله ويخافون حسابه .

وعندما أراد الرجوع من هذه الزيارة ، وتهيأ للسفر أمر يزيد غلمانه أن يسرجوا البرذون فاستحى الإمام من ربه أن يركب مركبا اختاره الظالمون المرفهون ، واختص به الجبابرة المترفون ، فاستعفى صاحبه منه ، فاحضرت له بغلة فقبل وركبها ، وهو يعلم أن ركوب البغلة أدنى إلى الخشونة وأبعـد من الراحة ، وأنفى للـكبر ، وأقرب من سنة رسول الله صلى الله علية وسلم ، فقد كان سيد الخلق يركب « دلدلا » الشهباء .

وبالغ يزيد فى إكرام الإمام . على الطريقة التى يعرفها الحـكام المترفون المسرفون فى الدول الظالمة ، فأمر جواريه أن يدهن رأس جابر ولحيته بالغالية فنزل الإمام الـكبير إلى دجلة وغسل رأسه ولحيته . ودلـكهما ، دلـكاشديداً ، وهو يقول : « اللهم لا تجعل حظى منك منزلتى عند هؤلاء القوم » .

اعتاد جابر أن يحج كل سنة . وفى إحدى هذه السنوات بعث إليه عامل البصرة أن لا تبرح العام ، فإن الناس يحتاجون إليك ، يعنى فى التدريس والفتوى ، ولـكن جابراً أصر على موقفه ، وأبلغ العامل أنه لن يترك عملا لله من أجل أوامر بشر ، ولو كان هذا البشر عاملا من عمال الدولة الأموية ، فأخذه العامل وسجنه .

وعندما أهل هلال ذى الحجة ، جاء الناس إلى العامل فقالوا : أصلح الله

الأمير قد أهل هلال ذى الحجة ولم يبق من الوقت ما يكفى للسفر بين البصرة ومكة . فأطاق الأمير سراحه . ولما وصل جابر إلى منزله بدأ يشد الراحلة على ناقة له . كان يعدها للحج .

ويقول : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » ثم سأل آمنة هل عندك شىء ؟ فقالت له نعم وأحضرت الزاد فى جرابين . . .

وطلب منها ألا تخبر أحداً بمسيره فى ذلك اليوم ، وانتهى إلى عرفات والناس بالموقف ، فضربت الناقة الأرض بجرانها ، وتجلجات ، فقال الناس : ذكها ! ذكها ! . . .

فقال « حقيق لناقة رأت هلال ذى الحجة فى البصرة ، وأدركت الناس فى محرمات ، ألا أن يفعل بها هذا . » وسلمت الناقة وكان قد سافر عليها أربعاً وعشرين مرة بين حجة وعمرة .

وإنه لمن نافلة القول أن أتحدث عن دين جابر وخلقه ، وخوفه لربه، واتباعه للسنة ، وابتعاده عن البدعة ، وفهمه العميق لأسرار الشريعة ـ ومحاسبته لنفسه، وحملها على ما تكره النفس البشرية إذا كان فى ذلك قربة إلى الله عز وجل .

اشتهر عن جابر أنه لا يماكس فى ثلاث : فى كراء إلى مكة ، وفى عبد يشترى ليعتق ، وفى شاة للتضحية ، وكان يقول : « لا نماكس فى شىء نتقرب به إلى الله تعالى » . وإذا وقع فى يديه ستوق كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم — والستوق الدرهم المغشوش — .

امتلأ قلبه بالإيمان بالله ، وفاض على لسانه دعوة مخلصة إلى دين الله ، وعلى جوارحه عملا صالحا بما يرضى الله . قالت هند بنت المهلب : « كان جابر ابن زين أشد الناس انقطاعا إلى والى أمى ، وكان لا يعلم شيئا يقربنى إلى الله

عزّ وجل إلا أمرنى به ، ولا شيئا يباعدن عنه إلا نهانى عنه ، وكان ليأمرنى أين أضع الخمار » . وتضع يدها على الجبهة لتبين موضع الخمار من جبهة المرأة المسلمة .

ولو التمست مثل هذه الشهادات عن علم جابر وأخلاقه أو دينه ، أو ذكائه وعبقريته لكثرت هذه الشهادات وأخذت منا وقتا ومكانا . وحسبك أن تعلم أنه رحمه الله أعلم من أن يبقى من كتاب الله وسنة ورسوله وهدى محمد حتى فى سلوكه الخاص شىء لا يعرفه . وإنه أذكى من أن تنطلى عليه زخرفة بدعة ظاهرة أو خفية ، وأخشى لله من أن يرى منكراً ويسكت عنه ، وأشجع من أن يؤيد عمل الظالمين ، ويرضى عن سلوك الطاغين ، وأحرص على أداء رسالة الإسلام من أن يكل من التعليم فى كل مكان .

رأى أحد الحجبة يصلى فوق الكعبة فنادى : يا من يصلى فوق الكعبة لا قبلة لك ! . . . وكان ابن عباس فى ناحية من المسجد فسمعه فقال : إن كان جابر بن زيد فى شىء من البلد فهذا القول منه . والأستاذ العبقرى يعرف من من تلاميذه يمتاز بصحة الفهم ولمحة العبقرية ودقة الملاحظة والاهتمام بأمر المسلمين ، والعمل على إرشادهم ، وتوجيههم إلى الطريق الأقوم .

وبعد هذا كله فإن جابراً يعتبر من أوائل المؤلفين فى الإسلام ، إذا لم يكن أولهم على الإطلاق ، وقد كان لكتابه الضخم القيم ، المسمى « ديوان جابر » رنة فى صدر الإسلام ، وكان موضع تنافس بين دور الكتب الإسلامية ، واستطاعت مكتبة بغداد أن تتحصل عليه ، وأن تبخل به عن غيرها من المكتبات ، ولم تنقل منه إلا نسخة واحدة كافح أحد عباقرة جبل نفوسة للحصول عليها فى قصة طويلة سوف ترد إن شاء الله فى حلقة آتية .

كان لهذا الكتاب قيمة كبرى لما فيه من علم وهدى ، ولقربه من عصر النبوة ، ولأخذ مؤلفه عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وكانت له قيمة أخرى أثرية وهى أنه أول كتاب ضخم ألف فى الإسلام .

وإنه لمن المؤسف أن يضيع هذا التراث العظيم من مكتبة بغداد عندما أحرقت تلك المكتبة العظيمة ! وضاعت منها آلاف النفائس ، كما أنه من المؤلم المر أن تضيع النسخة التى وصلت إلى ليبيا فيما ضاع من التراث الإسلامى العظيم بسبب الجهل والحقد وطلب الرفعة عند الناس . وليس أعظم محنة من ضياع التراث العلمى والخلقى والدينى لأمة مسلمة لا يستقيم حاضرها إلا على القواعد المتينة التى انبنى عليها ماضيها ، ولن يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

لقد حاولت فى هذا الفصل أن أترجم للامام العظيم جابر بن زيد ، ولكننى أعترف أننى أخفقت ولم أستطع أن أصل إلى ما قدرته فى نفسى . وإلى ما يتطلبه الموضوع منى ، ولن يفوتنى فى آخر هذا الفصل أن أقتبس من العلامة قاسم ابن سعيد الشماخى ما يأتى :(١)

وأما تسمية مذهبنا بالإباضية . لكون عبد الله بن إباض(٢) رضى الله عنه كان المجاهد علنا ، المناضل علنا . فى سبيل تحقيق الحقائق ، وتصحيح قضايا العقول ، فيما أحدثه أهل المقالات والبدع ، من الزور والافتراء فى شريعة ربنا وكان شديداً فى الله تعالى ، وله مناظرات مع أهل التنطس والتفاسف ، كان الحجة الدامغة . التى يخنس أمامها كل ثرثار ، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم

---

(١) القول المتين .

(٢) سيأتى الحديث عن عبد الله بن اباض فى حلقة : « الاباضية فى الجزيرة »

نفس كل جائر جبار ، تغلب على المسلمين أصحابه الذين يقولون بقوله الإباضية ، وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى ، وإنما كان الامام القائد ، الوسيلة الراشد أس المذهب وحاميه ، مرجع الفضل فى تدوينه وتشييد مبانيه ، إنما كان جابر ابن زيد رضى الله عنه — وعبد الله بن إباض كان صنوه وتلوه ، وكان لا يصدر فى النوازل إلا عن رأيه ونظره ، وبعد وفاة جابر بن زيد ، ظهر عبد الله بن إباض بأجلى مظاهر الغيرة الدينية ، ولقن أصحابه مبدأ الاقدام فى تقرير الحق ، وقمع أهل الجور والظلم ، المنحرفين عن جادة الصواب ، حتى ظهرت هذه الفرقة الناجية ، المحقة الصادقة ، فى أدوارها الوجودية فى حالتى الكتمان والظهور ، مرعية بعين عناية الله تعالى .

لا يقدر عليه أحد بسوء ، ظاهرى الكرامات ، أعداء المناكر والجرائم ، أشداء على الظلم والظالمين ، والنفاق والمنافقين . »

أبو عبيدة مسلم (١)

أخذ العلم وأصول المذهب عن جابر بن زيد جماعات كثيرة انتشروا فى المشرق والمغرب .

وكان أعظمهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة . الذى أصبح مرجع الإباضية دون خلاف بعد جابر بن زيد ، رغم أن له زملاء لا يقلون عنه علما بدين الله وعملا به .

هو أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة مولى بنى تميم ، اشتهر بلقب القفاف ، لأنه كان يشتغل بصنع القفاف ، وهى حرفة حرة شريفة ، استطاع أن يرتزق منها هو وطلابه رزقاً شريفاً حلالا ، بعرق الجبين وكد اليمين .

تولى التدريس بعد الإمام جابر ، فأخذ عنه العلم خلق كثير ، رغم ما ابتلى به من مضايقة الطغيان ، وتشديد الرقابة عليه ، ومنعه من نشر العلم ، وبث الروح المتحررة التى ترفض الضيم ، ولا تسكت عن الهوان .

وقد اضطر تحت ضغط الظالمين أن يقوم التعليم مستتراً ، وأن يخفى مدرسته القيمة عن أنظار الحجاج ، وأعوان الحجاج ، الحجاج الطاغية الذى لم يكد يسلم من جبروته وطغيانه ، مؤمن بربه مخلص ، مع زميله وصديقه ضمام ، واستشار فى أمرهما مجوسيا ، ليدله على نوع من الأكل يتعذب به الآكل ولا يفضى به إلى الموت فأشار عليه باطعامهما الزيت والكراث ، فكان ذلك طعامهما إلى أن مات الحجاج فاطلق سراحهما .

---

(١) راجع السير للشماخى وشرح مقدمة التوحيد لقطب الأئمة .

وربما ضاق ضمام بهذا السجن وهذا العذاب فيقول له أبو عبيدة فى صبر المؤمن الواثق فى الله ، على من تضيق ؟

خرج الإمام أبو عبيدة من سجن الحجاج فواصل رسالته ، فى الدعوة إلى الله ، والتمسك بدينه ، والعمل بشريعته ، وكان حر الفكرة ، ينشر المبادىء الإسلامية الصحيحة ، فى كرامة المسلم . وعدم قبوله للامتهان ، ومطالبة ذوى السلطان بالاستقامة ؛ الاستقامة فى الدين ، والاستقامة فى الخلق ، والاستقامة فى العمل ، والاستقامة فى الحكم .

كان يدعو إلى مطالبة ذوى السلطة بالتزام السنة ، واتباع سيرة السلف الصالحين ، وإقامة العدل بين الناس . وتنفيذ أحكام الله ، كما جاء بها كتاب الله ، وهذه الدعوة هى أكره ما يكره الظلمة المستبدون ، فى كل عصر ، وفى كل مصر ولذلك فقد بذلوا ما لديهم من قوة ، واستعملوا كل وسيلة لكى يحولوا دون هذه الدعوة ، ويمنعوها من البلوغ إلى الناس على حقيقتها وصحتها ووضوحها لكى تبقى الأمة وادعة مستسلمة ، ويستمر الشعب صابراً منتظرا . و يسود الجميع القناعة والصبر .

ولكن هل يستطيع الظلم مهما كان قويًا ، والطغيان مهما كان عنيفاً ، والجبروت مهما استكبر واستعلن ، هل يستطيع كل ذلك . وأضعاف كل ذلك : أن يسكت الحق ، وأن يطمس نور الحقيقة . وأن يطول استعباده لشعوب تؤمن بأن دين الله يدعوها إلى التحرر من عبودية البشر ، وأن كتاب الله يحرم عليها الانخذال والاستكانة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أمته : أن أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر يقتل بها صاحبها .

فعل الحجاج ، وأعوان الحجاج ، ورؤساء الحجاج ، كل ما يستطيعون ، ليخفتوا صوت الحق ، ويضطهدوا دعاة الكرامة ، وحملة الشريعة ، فسجنوا وعذبوا وقتلوا ، وملأوا الدنيا بالرهبة والخوف ، فعلوا كل ذلك وأكثر من ذلك ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يزيدوا الثورة اشتعالا ، وأن يعجلوا بنهاية سلطانهم ، وذهب الحجاج ، وذهبت الدولة التى كان يعبدها من دون الله ، وذهب ما أعد لمحاربة المؤمنين من قوة . وتوفى إلى رحمة الله المؤمنين المخلصون . من التابعين ، ولحق بربه جابر ، والحسن ، وضمام ، وأبو عبيدة ، وآلاف غيرهم ممن وصلت إليهم يد الحجاج وزملائه بالأذى الكثير ، أو القليل ، ولكن شتان بين ما سجله التاريخ لأولئك وهؤلاء ، أما ما عند ربك فخير وأبقى .

استطاع الحجاج بما عنده من إمكانيات ، وما أتيح له من قوى أن يزيد قليلا فى المال الحرام الذى تمتع به المترفون من بنى أمية ، وأن يمنحهم أمنا أكثر فى مجالس العربدة والسكر . وأن يهيىء لهم التفرغ للشراب والقمار والفجور .

واستطاع أولئك المضطهدون المعذبون ، أن يمدوا الأمة الإسلامية بدين الله ، وأن يوصلوا إليهم رسالة محمد صافية خالصة ، وأن يغمروا قلوبهم بالإيمان بالله وحده . وأن يعرفوهم أن العبودية لا تكون إلا لله ، وأنه يتساوى فى ذلك جميع المخلوقات .

واستطاع أولئك المضطهدون المعذبون أن يفهموا الأمة أن الخلفاء والعمال والموظفين فى الدولة ، والقائمين بالحكم فى جميع المرافق والأعمال ؛ أن هؤلاء ليسوا غير حملة أمانة لمدة مؤقتة ، وأجراء للقيام بمهام الدولة ، نظير قوت وكسوة لا إسراف فيها ولا تبذير .

فإذا حفظوا هذه الأمانة ، ورعوا مصلحة الأمة ، وأدوها إلى أهلها ، كما

يقتضى الحق والعدل فلهم من الأمة الأجر الذى أسلفنا ، أما جزاء إخلاصهم وأماناتهم وجهدهم وصدقهم فعلى الله ، وعند ربك الجزاء الأوفى .

أما إذا أنسوا من أنفسهم عجزاً عن تحمل هذه الأمانة ، وخافوا عاقبة الضياع ، فليردوا الأمانة إلى أهلها ، ولينسحبوا مشكورين سالمين .

أما إذا غرتهم أنفسهم ، وغلب الشيطان على ضمائرهم ، وأرادوا أن يتخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، وأن يستأثروا بأكثر مما أعطاهم الحق ، فإن الأمة يجب أن تقف فى وجوههم ، وأن تردهم عن مقاصدهم ، وأن تطالبهم بالتزام الحدود ، واتباع السبيل ، فإن عرفوا الحق ، ورجعوا إليه ، غفر الله لهم ، وقبلت الأمة منهم ذلك ، واستمروا فى آداء واجبهم والقيام بأعمالهم ، والمحافظة على أمانة الله التى وضعت فى أعناقهم ، أما إذا نفخ الشيطان فى آنافهم ، واستحوذ البطر فى نفوسهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واستمرأوا شهوة الحكم ، فإنه يجب أن تقف الأمة لهم بالمرصاد ، وأن تحاسبهم على أعمالهم ، وأن تبعدهم عن مناصبهم ولو بقتالهم ، فإن قتل المفسدين أهون عند الله من أفساد المصلحين ، وظلم المؤمنين والعبث بحقوق المسلمين .

هذه الدعوة التى كان يدعو إليها المؤمنون من السلف الصالح ، وعلى هذه الدعوة كان الظالمون من ذوى السلطة يطاردونهم شر مطاردة ، ليخفتوا صوت الحق .

وكان أولئك الأئمة العظام لا ينفكون — مع دعوة التحرر هذه — عن نشر العلم ، وبث الخلق الحميد ، فكانوا يدأبون على تفقيه عباد الله فى دين الله ، وتفسير ما خفى عليهم من كتاب الله أو سنة رسول الله .

ولما كانت الرقابة الشديدة على أبى عبيدة لا تنفك عن التجسس عنه ، وكانت أوامر الظلمة تمنعه من التدريس ، فقد اتخذ مدرسته فى سرداب خفى ، طويل ووضع على مدخله سلاسل من الحديد ، فإذا سمع صلصلتها هو وطلابه علموا أن غريباً يريد الدخول إليهم ، فأوقفوا الدرس ، واشتغلوا بصنع القفاف ، فلا يشتبه الزائر فى أمرهم ، وإذا غادرهم وأمنوا عيون الظلمة ، رجعوا إلى ما كانوا عليه .

وانتقلوا من إدارة معمل لإنتاج القفاف إلى إدارة معمل لإنتاج القلوب والعقول والعزائم .

ومع هذه الرقابة الشديدة ، والضغط المستمر ، والعذاب المر ، مع كل ذلك استطاع ذلك الإمام العظيم أن يكون مدرسة إسلامية ، تحمل نور الهداية المحمدية إلى جميع الآفاق . فقد تثقف فيها عدد لا يبلغه الحصر من المسلمين ، و يكفى أنها خرجت حملة العلم إلى المشرق ، وحملة العلم إلى المغرب .

وإلى هذا الكفاح الطويل المستمر ضد الظلم والظالمين الذى يقوم به هذا الإمام ، فإنه كان يقوم بكفاح عقلى دينى آخر طويل مستمر ، كفاح البدعة فيما تزخرفه العقول المنحرفة ، والبصائر الحولاء ، من القدرية ، والجبرة ، والخوارج تلك العقول التى ابتليت بحب الجدل فى ذلك الحين ، وترك العمل .

كان أبو عبيدة — إلى دينه القويم ، وخلقه الكريم ، وعلمه الواسع ، وثباته على المبدأ ، واستمساكه بالحق ، وجفوته للعصاة ، وصموده أمام النوازل جم التواضع ، لين العريكة ، سهل الخلق ، يعترف بقلة الاطلاع ، وقصور الباع .

لقد كان مسلماً فى دينه ، وفى خلقه ، وفى عمله ، وفى علمه ، وكان داعية من دعاة الإسلام ، لا يفتنه زخرف الحياة ، ولا تغره زينة الدنيا ، ولا يجد الباطل عنده لينا أو هوادة .

إنه خلق للكفاح : كفاح الباطل فى جميع صوره وأشكاله ، كفاح الباطل الذى يأتى عن طريق القوة من ذوى السلطة ، وكفاح الباطل الذى يأتى عن طريق العقل فى منطق البدعة ، وكفاح الباطل الذى يأتى عن طريق العلم فى أغفال بعض تراث الأمة ، وكفاح الباطل الذى يأتى عن طريق الجهل فى التقليد الأعمى ، وكفاح الباطل الذى يأتى عن طريق الصبر فى صورة الوداعة لاحتمال المذلة ، وكفاح الباطل الذى يأتى عن طريق الجزع فى صورة الفرار من الصمود لاحتمال النازلة ودرء المصيبة .

وهو حين يكافح هذا الباطل فى جميع صوره وأشكاله يعرف أن حياة فرد أقصر من أن تقوم بهذه الرسالة الكريمة ، ولذلك عمل على تكوين جيل من الشباب الواعى المثقف ، العارف بحقيقة الرسالة الإسلامية ، المدرك لأسرار شريعتها وأن أول وصف يجب أن يكون عليه المؤمن بالله : أن يكون معتزاً بالله ، ذليلا على المؤمنين ، عزيزاً على الكافرين ، صبوراً على المحن فى أعلاء كلمة الله .

قال العلامة الشماخى عند تحدث عن أبى عبيدة :

« تعلم العلوم وعلمها ، ورتب روايات الحديث وأحكمها ، وهو الذى يشار إليه بالأصابع بين أقرانه ، ويزدحم لاستماع ما يقرع الأسماع من زواجر وعظة ، وقد اعترف مع ذلك بضيق الباع ، مع ما عليه من الاتساع . »

ومع ما لهذه الشهادة من قيمة ، فإن الحركة العلمية التى قام بها الإمام أعظم من أن تصورها كلمات فى سطور ، ويكفى أنه كان مركز إشعاع فى البصرة ، ومن ذلك السرداب الخفى الذى تصلصل السلاسل على بابه ، وتتكدس فيه القفاف مع الأقلام والأوراق ، انطلقت الدعوة الحرة الكريمة ، للمحافظة على تراث محمد كما جاء به محمد . فبلغت هذه الإنطلاقة أقصى المشرق ، وأقصى

المغرب ، وأقصى الشمال ، وأقصى الجنوب ، ولم تزل منذ ذلك الحين إلى اليوم وهى تكافح من أجل هذه الرسالة الكريمة ، حتى استيقظ الغافلون ، وانتبه النائمون الشاردون ، وبدأوا يراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى ربهم ، لينضموا إلى بعضهم ، ويوحدوا صفوفهم ، ويحفظوا رسالة الله من الأخطار الجديدة ، أخطار الزندقة والإلحاد ، وعبادة الناس ، الذين قدستهم الحضارة الكاذبة ، والدعاية المغرضة ، التى ترمى إلى أبعاد هذا الدين القيم عن مجرى الحياة ، لأنها تعرف أنه لا قرار لأحكام البشر مع أحكام الله ، ولا قيمة لشرائع الفلاسفة مع شريعة الإسلام .

كلمة لابد منها

قد يرى بعض القراء الكرام فى هذا العمل الضئيل الذى قدمته المكتبة الإسلامية الغنية ، دعوة إلى مذهب معين ، أو دفاعاً حاراً عنه كما قال بعض الأصدقاء ، وأنا أبادر فأقول : أما حرارة الدفاع فإننى أدافع بما أملك من حرارة عما اعتقدته حقاً ، وذلك من أجل الحق ، لا من أجل المذهب ، لأن الدفاع عن الحق سواء اصطبغ بنظرة مذهبية ، أو تجرد عنها ، هو الواجب الذى يتحتم القيام به على كل مسلم . .

وأما المذاهب ، فإن المذاهب الإسلامية المختلفة فى نظرى ماهى إلا جداول صغيرة تتفرع عن النبع الصافى الذى أراد خالق الإنسان أن تشرب البشرية منه ، وقد انبثق هذا النبع الفياض فى زمن غلب فيه الظمأ العقلى والوجدانى على حياة الإنسان ، فاغترف منه الناس فى ذلك الحين ما أذهب ظمأهم ، وأروى غلتهم ، و بعث الانتعاش والحياة فيهم

وجاء ناس من بعدهم ، فشق كل واحد منهم لنفسه ترعة ، وهو يريد الخير لنفسه وأهله ، وعلى مقدار طهارة مجرى الترعة ، أو زكاء مسيلها يصل الماء إلى طالبيه . .

وقد وقف أصحاب كل ترعة يدعون أن مجرى ترعتهم أنظف وأطهر ، وأن الناس يجب أن يشربوا من هذه الترعة إذا أرادوا الخير لأنفسهم لأنها ترعة يتصل مجراها بالنبع الأصلى فعلا ، وقد يغفل كثير عن هؤلاء الدعاة

عما يقع فى هذه الترع الطويلة الملتوية التى تسيل متفرعة عن النبع ، وأن تغييراً كثيراً يصادفها أثناء الجريان فى هذه الجداول التى تحفرها معاول الإنسان .

والأمة المسلمة اليوم بجميع فرقها وطوائفها أحوج منها فى أى زمن مضى ، إلى الرجوع إلى الاغتراف من أصل النبع الذى لا يلحقه تغيير ، ولا يطرأ عليه تبديل ، تاركة هذه الجداول الكثيرة التى شقها الناس غير المعصومين .

إن الدعوة إلى الاستمساك بكتاب الله ، والاعتصام بهدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عما سوى ذلك من المذاهب والنزعات ، هى الدعوة التى يجب أن يدعو إليها كل مسلم يحب الخير لنفسه ، ويحب الخير لقومه ، ويحب الخير لأمته ، ويحب الخير للانسانية .

وإذا دعوت إلى الاعتصام بدين الله ، والرجوع إلى حكمه ، فى قضايا الفرد ، وقضايا المجتمع ، وقضايا الإنسانية جمعاء ، فإننى أدعو إلى ذلك وأنا مؤمن أنه ما من طريق تسعد به البشرية غير هذا الطريق .

ولست حين أدعو إلى الاعتصام بدين الله غافلا عن أننى أعيش فى عصر مفتون بحضارة يزعم الإنسان أنه خالقها ، وأنه قد بعد عن الله بفكره وعقله وعمله ، وحاول أن يجمح عن روابط المخلوق بالخالق ، فيقطع صلته بربه ، ويبنى سعادته بتدبيره وإعداده .

وليست هذه هى المرأة الأولى التى حاول فيها الإنسان الضال أن يجمح عن روابط المخلوق بالخالق ، ويقطع صلته بالله ، ويستغنى عنه ، بل لقد وقف هذه المواقف منذ أزمنة طويلة ، فتحداه الخالق الأعظم أن يفعل : « يا معشر

الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان[1] » .

ولم يستطع الإنسان أن ينفذ منها لأنه لا يملك السلطان .

وسواء طالت هذه التجربة من الإنسان أو قصرت ، فإن الإنسان سوف يقتنع بأنه أعجز من أن يستغنى عن الله ، ويجمح عن حكمه ، وينفذ من أقطار السموات والأرض ، ولسوف يدرك فى نهاية المطاف أنه لا يمكن أن يسعد إلا إذا رجع إلى رحاب الله ، وتشمله رعايته وعنايته وتسديده .

---

(١) الرحمن : ٣٣

كلمة الختام

إننى أتوجه إليه سبحانه وتعالى بالشكر على نعمه الظاهرة والخفية ، وأحمده جل وعلا أن يسر لى هذا العمل الضئيل لخدمة الدين والأمة ، وأسأله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأضرع إليه سبحانه أن ييسر لى إنجاز بقية هذه الحلقات ، وأن يتولى على بالتوفيق ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

لقد رأيت أن أقف بهذه الحلقة الأولى إلى هذا الحد ، وأنا حينما أراجعها ألمس فيها كثيراً من الإخلال ، وعدم الاستيفاء بالمقاصد التى رميت إليها ، وأعتقد أن هذه الفصول فى مجموعها ، لم تبلغ المقصود منها فى الكشف عن حقائق منشأ الإباضية ، كما أن ترجمة كل من الإمامين العظيمين لم أبلغ بها منزلتهما فى نفسى ، وعذرى فى كل ذلك ، قلة المصادر ، وبعدى عن مجال المكتبات العامة والخاصة من جهة ، وضخامة العمل الذى قصدت إليه من جهة أخرى .

وعلى أولئك الطامحين إلى مزيد من المعرفة ، الذين لا يقنعهم هذا العمل الطفيف ، ولا يروى غلتهم هذا الوشل الضعيف ، أن يسرحوا أنظارهم بين ما كتبه عباقرة المؤرخين ، وعباقرة علماء الإسلام فى مختلف العصور ، فإنهم سوف يجدون فى تلك الجنان الفيحاء ، متع العقل والفكر والروح .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذه الفصول إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع الذين أمدونى بالمساعدة فى هذه الأبحاث المتواضعة ، وأخص من بينهم الصديق الوفى الأستاذ أحمد على عسكر على تيسيره لى هذا العمل ، مقدراً ما بذله من جهود جبارة ، وسهره من ليال طوال .

فهرس الاعلام

(ب)

فهرس الموضوعات